
قافلة الزيت
شعبان ١٣٩٣ - اغسطس/سبتمبر ١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الثامن   المجلد الحادي والعشرون

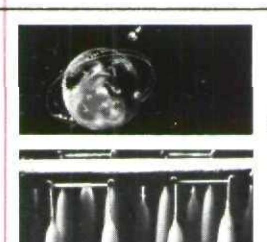
تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الامريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة - توزع مجانا

العنوان : صندوق البريد رقم ١٣٨٩ - الظهران - المملكة العربية السعودية

محتويات العدد



بحوث أدبية





بحوث علمية





إستطلاعات مصورة

التعليق على صورة الغلاف



جانب من أعمال الصيانة التي يتدرب عليها المتدرجون ضمن برنامج التدرج في أرامكو ..
راجع المقال   تصوير : برنت مودي



هل عرف أدبنا العربي القديم الواقعية

بقلم الدكتور ثابت بداري

قبل أن نجيب عن هذا السؤال ينبغي علينا أن نعرف مفهوم الواقعية كما عرفتها الآداب الغربية وغير الغربية في العصر الحديث . وقد نظرت فيما كتب من محاولات لتعريف هذا الاتجاه فوجدتني أمام تعريفات شتى قد تصح كلها ، ولكنها لا تعطي مفهوما محددا للواقعية ، فيرى « كوربيه » مثلا أن : « كنة الواقعية وأساسها هو انكار للخيال التصوري » والوهم والباطل ، وان جوهر الواقعية هو أن يكون الفن ديمقراطيا وليس ارستقراطيا . والواقعي عند الناقد « جوزيف تشيري » : « لا يتعامل مع الأوهام والسحب ، ولكنه يتعامل مع الحقائق والوقائع الحقيقية أو المحتمل وقوعها والمتعارف عليها بين الناس عامة ، والتي يمكن أن تسجلها العين في دقة وعناية » .

وقريب من ذلك قول «جوزيف دارزبيتش» : « ان الواقعيين يعارضون الكتاب العاطفيين ويعنون بتصوير المجتمع العادي ، ويخلطون الجيد بالرديء ، ويميزون بين الموضوعات الوضيعة والموضوعات العصرية الحضارية ، ولهم اهتمام بوجود أناس نجد فيهم أنفسنا وذواتنا ، ونعتقد أنهم نماذج عادية للطبيعة البشرية » .

ويقصر الناقد الأمريكي «الدريش – AL-drich» الواقعية على : « الموضوعات المستمدة من الاحياء الوضيعة » ، فالواقعية عنده « نفسٌ » فاسد يصعد من الأحياء الوضيعة » .

وفي الوقت الذي تركز فيه هذه التعريفات على مضمون الواقعية والموضوعات التي يتناولها الأديب الواقعي والتي هي مستقاة من البيئات الشعبية الفقيرة أو الأشياء الملموسة المرئية ، والبعد بها عن التصورات والأخيلة ، نجد تعريفات أخرى تعنى بطريقة التناول والمعالجة ، فمثلا يرى الناقد « كلاي » أن : « أساس الواقعية أو الطبيعية هو أن يكون الفن ترجمة « اتوماتيكية » للانفعالات والانطباعات في علمية صافية وأصول وقواعد محددة » ويرى « باترسيلز » أن : « الواقعية في الأدب والفن محاولة لوصف الحياة بطريقة أمينة وموضوعية ويؤيد هذا الرأي الناقدان الأمريكيان « روبرت سبيلر » و « هويلز » عندما يقولان : « ان الواقعية ليست سوى معالجة المادة معالجة صادقة » .

ومن النقاد من يذهب الى أن الواقعية قديمة قدم الزمن فهي عند « هاري بلك » تمتد الى « يوربيدس » وفي أقطاب الرومانتيكية أنفسهم ، وعنده أنه : « مهما يكن من شيء فالواقعية لم تكن من ابتكار أحد ، ولا من اكتشاف أحد ، فجرثومتها سابحة في الهواء . ان الديمقراطية في السياسة ، والمادية في الفلسفة ، والواقعية في الأدب كلها أشياء متصلة أوثق اتصال » .

وقريب من هذا قول الدكتور طه حسين : « الواقعية رجوع الى الأدب الصحيح كما عرفناه في حياة القدماء العرب وغير العرب ومن المحدثين الأوربيين ، والانحراف عن الواقعية في الأدب العربي لم يأت الا في عصر متأخر حين أجدبت القلوب والعقول » . وواضح أن الدكتور طه حسين ومن رأى رأيه في قدم الواقعية لا يعنون من الاتجاه الواقعي سوى الصدق في التناول والبعد عن التكلف والتصنع .

ولا شك في أن تعدد تعريفات الواقعية راجع قبل كل شيء الى غموض كلمة « واقع » واختلاف تفسيرها واختلاطها بالسياسة والفن وبعدها في الاستعمال الشائع اليوم عن الأصل الفلسفي الذي بنيت عليه . ويؤكد « ثرث بيرت » غموض كلمة الواقعية ، فيقول : « كلمة الواقعية كغيرها من الكلمات التعميمية الضخمة سرعان ما تفقد معناها الحقيقي وتصبح مجرد « كليشيه » مهترئة ، انها كلمة عديمة الشكل والتحديد وصلت واستعملت لتلائم ما تعده كل فترة من فتراتها واقعيا » .

ومن أسباب تعدد مفهوم الواقعية أيضا علاقة المعنى الاشتقاقي للفظة « واقع » بالمعنى الاصطلاحي الاتجاهي ومدى ارتباط الاتجاه الواقعي بالواقع ، وهل هو نقل للواقع ، ولكن أي واقع هذا وقد رأيناه متغيرا متبدلا ؟ !

يضاف الى السببين السابقين سبب ثالث مهم ، وهو تطور مفهوم الواقعية من عصر الى آخر ، ومن قطر الى قطر ، فواقعية القرن التاسع عشر غير واقعية القرن العشرين ، وواقعية أوروبا غير واقعية روسيا ، وواقعية فرنسا تختلف عن واقعية انجلترا بعض الاختلاف ، وان جمعت بين هذه الألوان جميعا سمات مشتركة نعرض لها في ثنايا موضوعنا ، الذي هو محاولة للتعرف الى ملامح الواقعية في أدبنا العربي القديم – ان وجدت فيه– كما أشار الدكتور طه حسين .

والواقع أنه اذا بحثنا عن الواقعية بمفهومها الغربي ، وكما ظهرت في أعمال « بلزاك » و « فلوبير » و « ديكنز » و « هاردي » وغيرهم من الأدباء الفرنسيين والانجليز ، ونعني بها تصوير الواقع والحياة بما فيها من خير وشر ، وعنايتها بالتفصيلات والجزئيات ، وبعدها عن الخيال الطليق والأوهام ، فاننا سنجد لها مشابه كثيرة في أدبنا العربي القديم ، وقد يعلل هذا قول بعض النقاد الغربيين في أدبنا القديم أنه كان قليل الحظ من الخيال ، لأن أدباءنا من العرب القدماء كانوا يصورون احساساتهم ومشاعرهم بدون تزيد أو نقصان وبدون فلسفة أو اغراب ، وكان دستورهم في ذلك قول أحدهم :

وان أحسن بيت أنت قائله
بيت يقال اذا أنشدته صدقا

وننظر في معاني الشعر الجاهلي فنقف على البساطة والوضوح ، يقدمها الشاعر منكشفة ، كأنها أشياء صلبة محسوسة ، أو كأنها حقائق تسرد سردا ، خالية من الخيال الا ليزيدها جلاء ووضوحا ، وعندما يعالج الفضائل يسوقها في مادة الانسان الحسية ، لا يتحول بها الى معنى ذهني عام يصور احساسه بالبشرية جميعا في هذه الفضيلة أو تلك ، وانما يقرنها بشخص معين يتحدث عنه ، ومرجع ذلك الى أنه لم يكن يفرض ارادته الفنية على الأحاسيس والأشياء ، بل كان يحاول نقلها الى لوحاته نقلا أمينا دون تعديل

ولذلك يعد الشعر الجاهلي وثيقة دقيقة للحياة الجاهلية . وهذه النزعة جعلت الشاعر الجاهلي لا يحلل خواطره ولا عواطفه ازاء ما يتحدث فيه ، فهو لا يعرف التغلغل في خفايا النفس البشرية ولا في أعماق الأشياء الحية ، ومن ثم انتزع خياله وتشبيهاته من عالمه المادي .

وتظهر النزعة الواقعية جلية واضحة في شعر الصعاليك ، اذ أنهم يتخذون الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضوعاتهم ، ويبعدون عن الامعان في الخيال امعانا يبعدهم عن عالم الواقع الى عالم الأوهام ، ويصدقون في النقل عن الحياة فلا نحس في شعرهم اختلافا بين الصورة الشعرية وأصلها في الحياة ، ومن مظاهر هذه الواقعية عندهم كذلك ، استكمال الصورة العامة بحيث نشعر أننا أمام صورة طبيعية منقولة من الواقع نقلا أمينا مستكملة عناصرها من الهيئة والمكان والزمان والحالة والفعل والنتيجة ، كما تحرص على التفاصيل والاهتمام بالجزئيات . وكذلك نحس في شعرهم الصراحة في التصوير وتسجيل الواقع كما هو ، مع دقة في التعبير وظهور الخبرة العملية في فنهم ، وهو مظهر يجعلنا أمام انسان يعيش في الواقع العملي ، لا أمام شاعر يعيش في الخيال والأوهام .

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى أنه على الرغم من تعلق الشاعر الجاهلي بالواقع وتشبثه بالحقيقة واتصافه بالاعتدال ، فانه لم يباعد المثالية ، فالشاعر الجاهلي اذا نظر في الخلق أو الخُلق لم يباعد تعلقه بالحقيقة وواقع الحياة بينه وبين اختيار الأجمل والأكمل . وقد طالب النقاد القدامى الشعراء بألا يصفوا الأشياء كما هي ، وانما يصفونها بوصفها مثلا أعلى ، وذهبوا يذيعون عبارتهم المشهورة « أبلغ الشعر أكذبه » ، وقد كانت هذه العبارة من أسباب تخلف شعرنا العربي وخلوه من المادة الحية .. مادة الواقع المحسوس بكل ما فيه . ولعل أروع ما في هذه المثالية هو ذلك الاحساس العميق بالتقارب بين مظاهر الجمال في الوجود احساسا كان يربط ربطا وثيقا بين الشيئين في ذهن الشاعر العربي ، بحيث اذا ذكر أحدهما ذكر معه الآخر .

واذا كان بعض النقاد يرى أن الواقعية لا تعارض المثالية تعارضا تاما ، وأنه يمكن الجمع بينهما حتى تكون واقعية متطورة لا تكتفي بنقل الواقع ، فاننا هنا ينبغي أن نقف على الفرق بين هذه الواقعية العربية والواقعية الغربية ، فالأولى اكتفت بنقل الحقائق وتصوير الواقع تصويرا دقيقا أمينا دون هدف محدد ، في حين أن الواقعية الغربية كانت تهدف من وراء نقل الواقع الى اتخاذه وسيلة لتفسير قوانين الحياة وطبائع الجنس البشري .

واذا نظرنا الى الموقف المحدد من الحياة ، والذي يمكن أن يتخذه الشاعر لنفسه تجاه مجتمعه ، فاننا واجـــدون في شعر هؤلاء الصعاليك شعورا حادا بالفقر واحساسا مريرا بوقعه على نفوسهم وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم .

وبوجه عام فان الشاعر الجاهلي لم يحاول أن يسمو بمجتمعه ، بل الذي حدث هو أن المجتمع جذبه اليه وأذاب شخصيته فيه .

ونرى لزاما علينا قبل أن نترك الحديث عن الأدب الجاهلي ، تعليل هذه النزعة الواقعية في هذا الأدب ، ويمكن اجمال أسبابها في موقع الجزيرة العربية ووضعها الاقتصادي الذي فرض عليها الاتجار مع الأمم المختلفة ، واكتساب العرب معارف متنوعة ، ونمو ادراكهم العقلي تبعا لذلك ، وفطنتهم الى الحقائق الموضوعية بعد انخداعهم في شطحات الخيال ، واهتمامهم بالواقع بعد ضلالهم في الأوهام . أضف الى ذلك الغارات الداخلية التي كانت تدور بين القبائل ، الأمر الذي جعلهم يعتمدون على أنفسهم وواقعهم .

ويشرق نور الاسلام فيبعث في النفوس حرارة الايمان ، ويلم شعث العرب ويوحد أهدافهم ، ويطهرهم من الكهانة والوثنية ، ويدعوهم الى الصدق وتجنب المبالغات والأوهام .

وننظر في الأدب الاسلامي فاذا به تضامن كله ، التزم الأدباء المسلمون بمبادىء عقيدتهم كما التزم المشركون بمبادىء قريش قبل أن تسلم وتنشأ الفرق بعد وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وينحاز الأدباء الى هذا الفريق أو ذاك ، يذود عن مبادئه ويفند حجج خصومه ، ولا يمنع هذا انحياز بعض الشعراء الى الفن الخالص ، ولكن ذلك كان سببا في أن يدركهم الخمول على ما أتاح لهم من الجودة الرائعة .

وتتسع رقعة الدول العربية بعد الفتوحات ، وتنتعش الحركة الاقتصادية والفكرية في الجزيرة العربية وتنشأ طبقة جديدة من التجار والمهنيين ورؤساء الحرف ، وتتسع بهم المدن اتساعا كبيرا وتصبح لهم رغبات ومثل فكرية وأخلاقية خاصة ، ومن ثم يظهر أدب ينوه بهذه المثل والميول .

وعلى الرغم من أن أدبنا الوسيط ، وبخاصة الشعر ، قد عاش في ظل الحكام ، فاننا نجده يشارك في نواحي كثيرة من السياسة العامة ، فالمتنبي يصور في مديحه لسيف الدولة كفاح العرب للروم ، كما يصور في مديحه عامة تحامله على الأوضاع الاجتماعية ، وحتى « أبو العلاء » الذي اشتهر باعتزاله الناس ، نجده يصور حياتهم ويحمل حملة شعواء على الأحوال الاجتماعية والسياسية في عصره ، وان كان قد أخطأ في سكب اصلاحه بقوالب هذا الشعر الذي لزم فيه ما لا يلزم ، وعقد معانيه .

وفي ذلك العصر العباسي ، عصر نضوج الحضارة والثقافة والأدب ، شغف بعض الأدباء بتتبع أحوال الناس المعيشية وعاداتهم وأخلاقهم ، وقد ظهر ذلك في كتب الجاحظ ، بيد أنه كان يروي الأشياء على علاتها ، ويخلطها بفكاهاته ، وكذلك « بديع الزمان الهمذاني » في مقاماته التي لم تتعد التصوير المجرد متجنبا التصريح بالتحامل على بعض الأحوال الاجتماعية وكأنه مقتنع بعدم جدوى محاولة الاصلاح .

ومما سبق يمكن القول بأن الأدب العربي القديم في جملته قد صور الحياة العربية وشارك فيها ، ولكنه لم يرتفع الى تصوير المتناقضات ، الموجودة في هذا المجتمع العربي ، بحيث يتمكن من خلال هذا التصوير من قيادة الأحداث ودفع عجلة الحياة والوصول بها الى ما هو خير للعرب والانسانية جمعاء .

واذا أردنا تعليل هذا النقص ورده الى أسبابه فاننا واقفون لا محالة على سبب أصيل ، وهو تزمت النقاد ونزعتهم التقليدية التي جرتهم الى المحاكاة والاتباع ، وعدم فطنتهم الى العلاقة الوثيقة بين الأدب والحياة والمجتمع ، الأمر الذي جعل أدبنا العربي القديم يدور في حلقة مفرغة من الأغراض والمعاني والصور والأخيلة .

وبغض النظر عن فترة الضعف الأدبي التي مر بها أدبنا في عصر التسلط الأعجمي على الدولة العربية ، نقول أن الأدب العربي قد غلب عليه النزوع الى الواقع ، ولكن هذا النزوع لا يمثل اتجاها أدبيا ، لافتقاره الى فلسفة عامة تتصل بالسياسة والاجتماع والفكر وحالة الجمهور القارىء النفسية ، وما هو الا نزوع تلقائي أملته بعض الظروف الاجتماعية ينقصه الاحساس العميق بقيمة الانسان وتحقيق قضاياه العامة والأخذ بيده الى حياة أفضل وأمثل ، وهو ما ينهض عليه الاتجاه الواقعي بالمفهوم العصري ■

د. ثابت بداري — الرياض

فرع من التاريخ مهدد بالاندثار

بقلم الاستاذ أبو الوفا مصطفى المراغى

لعلّ من أشد الأمم عناية بتاريخهم هم العرب ، فلقد عنوا بتاريخهم في شتى جوانبه ، عنوا بتاريخ ملوكهم ورؤسائهم وحكمائهم واطبائهم ومعاركهم وابطالهم ومنازلهم وديارهم وحتى بمشاهير خيلهم وابلهم ، عنوا بذلك كله وحفظوه في صدورهم وتناقلته اجيالهم خلفاً عن سلف حتى تهيأت لهم فرصة تسجيله وكتابته ، فأخذوا يسجلونه من أذهانهم في اسفارهم ، وتجمع لهم من كتب التاريخ ثروة تاريخية ندر ان تجتمع لغيرهم . ولعل مما استثار عزائم العرب للعناية بتاريخهم وبعثهم على المبادرة الى تسجيله وتدوينه حين أتيحت لهم الفرصة ، ارتباطه في بعض جوانبه بالدين ، فمولد الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرته وغزواته ، وسيرة اصحابه ، وهي من أوائل ما حظي بالتدوين ، دين من حيثما تفرضه على المسلمين من واجب الأسوة والقدوة ، وهي تاريخ من حيث انها سرد وتسجيل لتلك الأخبار والحوادث . ولهذا كانت كتب السيرة النبوية وكتب طبقات الصحابة أسبق كتب التاريخ العربي تأليفاً وتدويناً ، فسيرة ابن اسحق التي لخصها ابن هشام ، ومغازي الواقدي ، وطبقات ابن سعد التي ضمنها سيرة النبي ومغازية ، وطبقات الصحابة والتابعين وتابعيهم من مكة والطائف واليمن واليمامة والبحرين والكوفة والبصرة وبغداد والشام ومصر ، من أسبق كتب التاريخ العربي الاسلامي ، ولقد كان منهج التأليف في التاريخ يتسم أولا بالعموم والشمول الزماني والمكاني ، أعني ان المؤلف كان يجمع في كتابه ما تيسر له من الأفكار التاريخية في كل زمان ومكان لا يخصصه بفترة زمنية ولا بمنطقة جغرافية ، ويمثل هذا المنهج الطبري ، وأبو حنيفة الدينوري ، والمسعودي ، واليعقوبي . ومما يقول الطبري في مقدمة كتابه الآثار الباقية : «انا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من ابتداء ربنا جل جلاله خلق خلقه الى حال فنائهم مَنْ انتهى الينا خبره . . . وما الذي كان قبل خلق الله اياهم وما هو كائن بعد فنائهم وانقضائهم . »

وهذا النوع من التأليف تعوزه الدقة والموضوعية ، ولعل عذر المؤلفين في ذلك أنهم كانوا لا يرجعون الى أصول مكتوبة محققة بل كانوا

يعتمدون على الذاكرة والمشافهة . لهذا نرى كتب التاريخ لذلك العهد زاخرة بالأساطير خصوصاً ما يتعلق منها ببدء الخلق وخلق آدم وحواء على وجه أخص .

وقد أخذ التأليف التاريخي في ظلال الأزدهار العلمي للدولة الاسلامية بحظ من التطور الذي شمل العلوم الاسلامية كلها فنحا نحو الموضوعية والتخصص ، وأخذ كل مؤلف يعالج موضوعا خاصاً من موضوعات التاريخ ، فألفت الكتب في تاريخ الحروب والفتوح ، وفي تاريخ طوائف العلماء وفي تاريخ بعض البلدان والأمكنة . وحفلت المكتبة العربية بمؤلفات خاصة بطبقات المفسرين والفقهاء والأدباء والحكماء والأطباء واللغويين والنحويين وغير ذلك من الطوائف ، وكان في هذا المنهج من التأليف شيء من التيسير على العلماء والدارسين . ففي تحديد الموضوع اختصار في طريق الكشف والمراجعة وتوفير في الوقت والجهد . ومن هذه المؤلفات الموضوعية المؤلفات الخاصة بعلماء واعيان كل قرن ، ومنها نوع خاص امتاز بالعناية بجانب هام من جوانب الترجمة وهو جانب تكوين الشخصية العلمية للمترجم له ، أعني جانب الأستفادة والإفادة ، الإستفادة من الشيوخ الذين تلقى عنهم وافادة التلاميذ الذين تلقوا عنه . واهمية هذا الجانب أنها تكشف الى حد ما عن مكان المترجم له وتنوع ثقافته وتوثيق أفكاره ، ولعل هذا الأسلوب مما انفرد به التأليف العربي في فن التاريخ. واغلب الظن ان المؤلفين في التاريخ على هذا النحو قد تأثروا فيه خطوات المؤلفين في رجال الحديث . فلقد كان حتماً على المؤلفين في تاريخ الرجال أن يذكروا شيوخ المترجم له وتلاميذه لتعرف درجة روايته ومكانه من العدالة والضبط والصدق والتوثيق . وفي فن تاريخ التأليف نماذج لهذا المنهج ، أعني منهج التأليف على حسب القرون ، فمنذ القرن السادس الهجري نجد لعلماء واعيان كل قرن مؤلفاً خاصاً به يعم أحياناً ، فيشمل علماء وأعيان الأقطار العربية ، ويخص أحياناً فيقتصر على منطقة او قطر معين . ومما عرف من ذلك وتداوله العلماء المؤلفات التالية :

« الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » للعلامة ابن حجر و « الضوء اللامع في اعيان القرن التاسع عشر » للسخاوي و « الكواكب السائرة بمناقب اعيان المائة العاشرة » للغزي ، و « خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر » للمحبي و « سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر » للمرادي . وقبل هذه الكتب نجد : « وفيات الأعيان » لأبن خلكان ، و « فوات الوفيات » لأبن شاكر ، وهما يترجمان لأعيان وعلماء ما قبل القرن الثامن عامة . هذه السلسلة من كتب التاريخ مرتبة على حسب القرون ، قد ملأت فراغاً في المكتبة التاريخية ويسرت على الباحثين وسائل الدرس وكفتهم معاناة المراجعة في الأسفار التاريخية العامة ، وكان من أنفعها وايسرها ما رتبت تراجمه ترتيباً أبجدياً . وقد انقطعت سلسلة هذا المنهج بعد القرن الثاني عشر ، مع الأسف ، وشعر الباحثون بالفراغ التاريخي في تراجم علماء وأعيان القرنين الثالث عشر والرابع عشر مجتمعين في كتابين حتى أن أحدهم اذا اقتضاه بحثه العلمي التعرف الى واحد من هؤلاء عانى من ذلك وتوزعته المسالك الى الرجوع الى الصحف والمجلات المعاجم وكتب التاريخ العامة ، وقد لا يظفر بعد المعاناة بما أراد، على حين أنه اذا أراد التعرف الى ترجمة لأحد رجال القرون السابقة عليها لم يجد في ذلك عناء ولا مشقة .

وقد كان لبعض العلماء محاولات لسد هذا الفراغ ، أعرف منهم العلامة المرحوم أحمد تيمور ، والبحاثة زكي مجاهد ، ولكن تلك المحاولات كانت ضئيلة لا تطفئ ظمأ المؤرخين ولا تسد حاجة الباحثين . فللعلامة أحمد تيمور رسالة في بعض رجال القرن الثالث عشر والرابع عشر لا تكاد تبلغ تراجمها عشرين ترجمة ، وللبحاثة زكي مجاهد أربعة أجزاء صغيرة أصدرها على فترات ، حسب امكاناته ولا يزال لها بقية لم تطبع بعد فيما أعلم .

وليس من قصدي أن أقيم هذين العملين تقييما علميا ، وحسبنا أن يضعها الزمن في ميزانه ، وانه ميزان دقيق .

واذا صح لنا أن نعد ما تصدره الهيئات والجامعات من نشرات وتقاويم بعضا من هذه المحاولات فانا نذكر هنا ما قام به مجمع اللغة العربية بمصر ، فقد أصدر كتابا خاصا بتراجم أعضائه ، وامتاز منهج هذا الكتاب بالتركيز والاحاطة كما امتاز بالصدق والتوثيق ، فمصادره التاريخية هم أصحاب التراجم أنفسهم ، وأنه ليعد في نظرنا انموذجا للتراجم العلمية التي ننشدها وندعو اليها لعلماء القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ونعد منها كذلك تقويم الجامعة الأزهرية الذي أظهرته منذ سنوات .

إن المكتبة العربية تواجه فراغا تاريخيا في تراجم الرجال يزداد احساسنا به سنة بعد أخرى ، وذلك تفريط ستلقي علينا الأجيال المقبلة مسئوليته حين يحسون بالخواء التاريخي في هذا الجانب من التاريخ ، والمسئولية الكبرى في ذلك تقع على عاتق المؤرخين في الأقطار العربية المختلفة .

واذا كان لي أن أقترح شيئا نعالج به الفراغ التاريخي في تراجم الأعيان والعلماء في القرنين الثالث عشر والرابع عشر منفصلا كل منهما عن الآخر ، فاني أقترح تأليف هيئة من رجال التاريخ في كل قطر عربي تقوم بوضع مؤلف خاص في أعيان وعلماء ذلك القطر في القرنين المذكورين ، وتقوم بنشره على الصورة التي تراها ، ثم تقوم هيئة عامة من جميع الأقطار بجمع هذه المؤلفات وترتيبها هجائيا ونشرها على صورة موسوعة تاريخية لجميع علماء الأقطار الاسلامية على أن يراعى في وضع هذه المؤلفات تكوين الشخصية العلمية للمترجم له ، على نحو ما أشرنا اليه ، وانا لنحيي بهذا العمل تقليداً علميا امتاز به المؤلفون العرب وكان له من الفوائد ما ذكرنا .

وقد يكون مما يعين هؤلاء العلماء على اداء مهمتهم التاريخية أن يستعينوا بمحاولات من سبقوهم من الأفراد والجماعات . واذا أمكن تقصيها وحصرها وأحسن استغلالها ، أسهمت بنصيب كبير في انجاز هذه المهمة وقادت القائمين بها في طريق معبدة تقرب بها الغاية ويتم القصد ■

أبو الوفا مصطفى المراغي – القاهرة

في الأفق الأخضر

للشاعر طاهر زمخشري

لم يلد يا ربيعُ فجر هنائي   فتلطّف بنفحةٍ منْ شذاء

أتسلّى بها ، وأستَشْعِرُ الفَرحَةَ صدّاحَةً بيومِ اللقاء

قد عبرت الآماد في ظلمةِ التّيه ، على نورِ بسمةِ الزّهْراء

وهيَ شدْوٌ بمَسْمَعِي ورُؤاها   ملء نفسي ، وحبّها في دِمائي

تحملُ الزّفْرةُ العميقةُ أنفاسي ، وتجتازُ دارةَ الجوزاء

فوقَ طيرٍ جناحُه يلفظ النّارَ ، ويرْنو بنَظْرةٍ استعْلاء

يقطعُ الجوّ ان تهادى ، فلا تدْركُ ، مسْراه أعْينُ الرّقباء

فهو إن رفّ يَسْبق البرقَ ومضاً   واذا خفّ لفّ مدّ الفضاء

في انطلاقٍ يسابقُ الريحَ إن أسْرى ، ولا يَرْتَضي بغَيْرِ العَلاء

موطِئاً للخُطَى ، ودَرباً لمسْراه إليْها . . في الوَاحَةِ الخضْراء

حيث خلفت خافِقي منذُ عامٍ   في رياضٍ نديّةِ الأفْياء

السّنا راقص الأهلّةَ فيها   وهو لاهٍ في مَسْبَحٍ من صفاء

وتُناغيه بالبَشاشَةِ أهْدابٌ ، وان المزمَارَ عذْبُ الاداء

وهو عينٌ بها المفاتنُ تغْفو   فوقَ جفْنٍ مُكَسّرٍ من حياء

وهيَ في السّنْدسِ المغلّفِ بالنّرْجِس ، يَرْمي بنَظْرةٍ نَجْلاء

منْ سِهامٍ تُصيبُ من قد تصبّى   بجفونٍ تصيد بالإغْراء

كلّما كَسَّرت أصابتْ وزادتْ   فتنة بالحياء والأيماء

أسرتني ، ولا أريدُ فكاكاً   ليقولوا : أسير ذات البهاء

* * *

حوّل العام حيرَتي لارتقابٍ   بعْدَ أن جدّدَ انتظَاري رَجائي

بحنينٍ يذوبُ في رقةِ الأنْفاسِ تندّى بذِكْرياتِ المساء

وعلى رفرفٍ من الأملِ المنْشودِ يَسْري الى ارْتشافِ الهَناء

بفتونٍ تناقلَتْه التعابيرُ ، بِهَمْسٍ يطيرُ بالأهْواء

* * *

وعلى لاهبٍ من الشّوقِ يَطْفو   خافق ضاقَ بالهوى الكوّاء

فإذا أنّ أرسل الروح شدْوا   واذا حنّ طافَ بالأجْواء

والرّؤى حولهُ تباركُ مَسْراه ، وتقفو خُطاه في الإسْراء

تتَرامَى به المسالِكُ والأبْعادُ ،   في دَرْبه لأحْلى لِقاء

حَيْثُ تَشْدو له المسرةُ أنْفاحاً ،   وقيثارُها جَزيلُ العَطاء

طاهر زمخشري — جدة



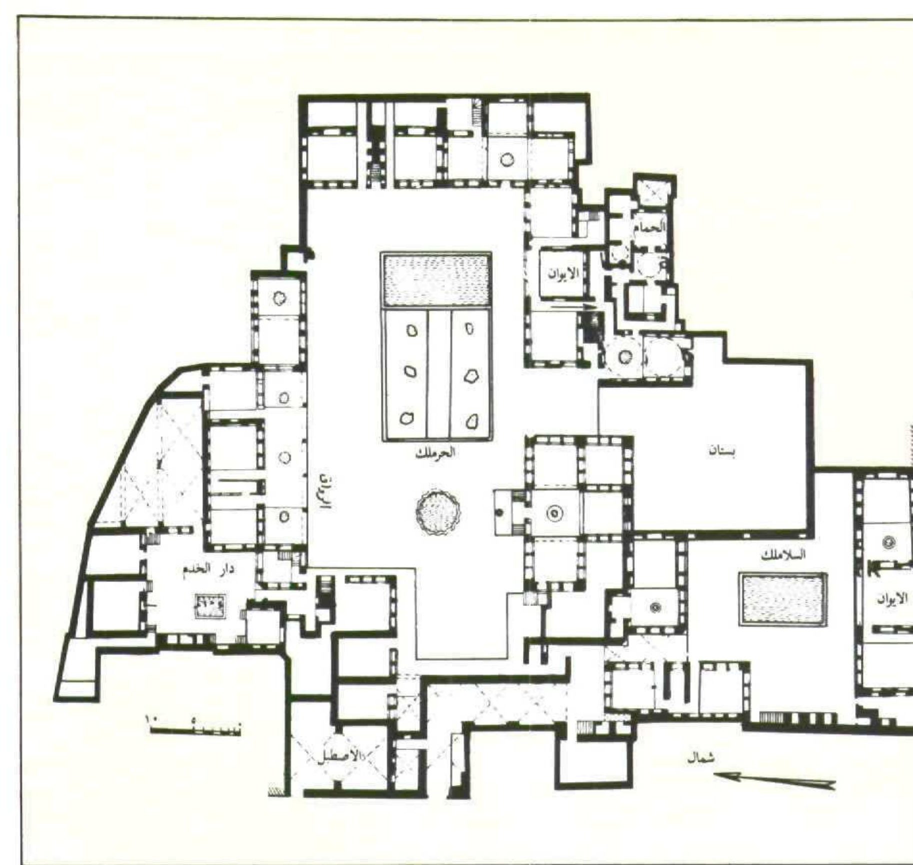
قصر العظم

بدمشق

بقلم الاستاذ محمد أبو الفرج العش

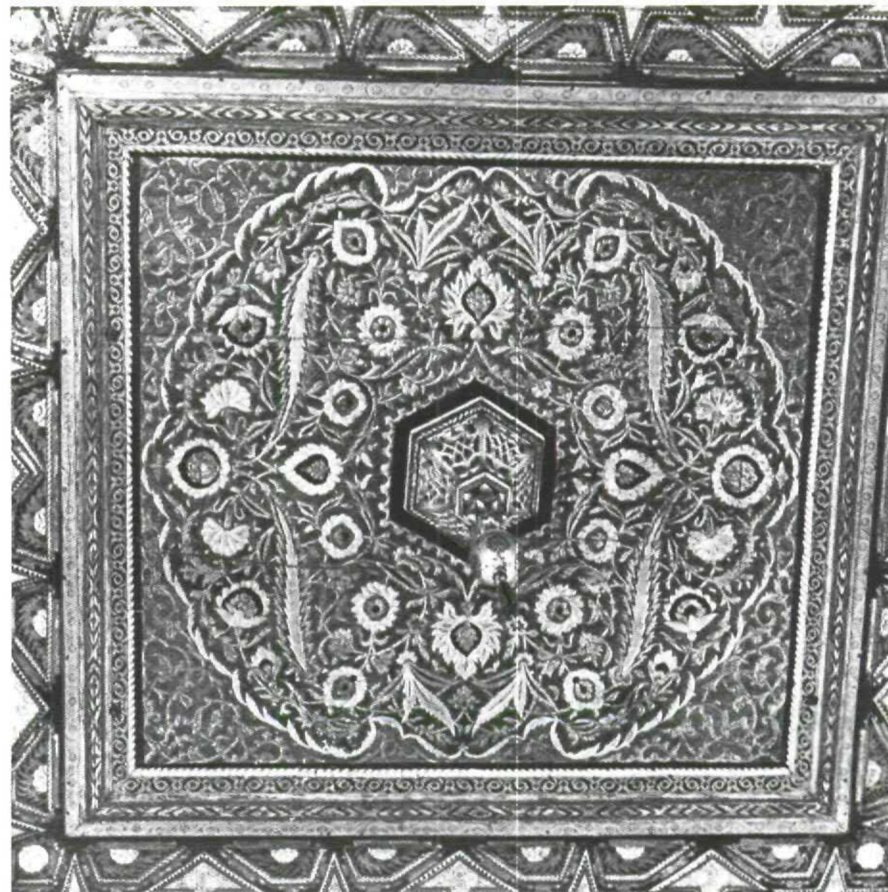
منظر عام للحديقة الغناء التابعة لقسم « الحرملك » في قصر العظم .





رسم تخطيطي لأقسام قصر العظم الأثري في دمشق .

من سقف قاعة الاستقبال التابعة للجناح الشمالي من قسم « الحرملك » ، تزينه الأشكال والنقوش المنمنمة .



يقع هذا القصر الشامي في النهاية الشمالية لسوق « البزورية » في دمشق ، منحرفا الى جهة الشرق وهو في هذا الموضع يكون في جنوبي الجامع الأموي الكبير ، ويحتل مساحة واسعة مقدارها ٥٥٠٠ متر مربع ، وقد بناه والي دمشق الوزير أسعد العظم سنة ١١٦٣هـ (١٧٥٠م) .

يمثل هذا القصر الفن المعماري العربي الاسلامي المتطور من خلال العصور ، فاذا ما تأملنا تخطيطه ونمط بنائه وتعابير زخارفه في الحجر والرخام والخشب والمعدن تكونت لدينا فكرة واضحة عن دور دمشق الأثرية في العهد العثماني وعن مستوى الصناعات الفنية الراقية التي بلغت آنذاك .

كثير من الناس يحسبون أن بلاد الشام لفظت أنفاسها الفنية والصناعية في عهد الانحطاط لكن دراسة واعية لآثار القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) تجعلنا ندرك أهمية الفن والصناعة فيها .

آثار المباني القديمة قبل بناء القصر

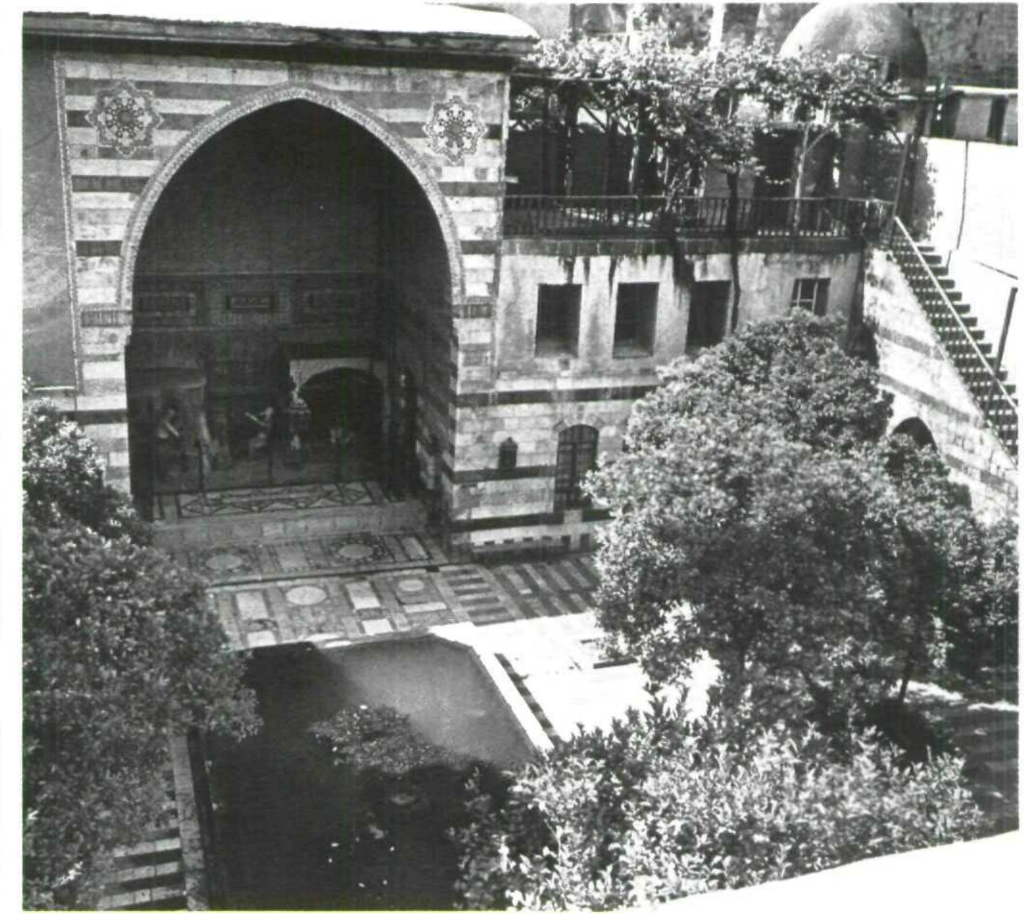
يشغل القصر مساحة كبيرة في قلب المدينة القديمة ، وهو يحتل جزءا كبيرا من معبد « جوبيتر » الدمشقي المقام منذ العهد الروماني . وفي مكان القصر وبامتداده الى جوار الجامع الأموي كان قصر الخضراء الذي بناه الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان ، وقد بقي قصر الخضراء طوال العهد الأموي مقرا للخليفة في العاصمة .

وعندما آلت الخلافة الى العباسيين دمروا القصر . وظل مكانه خرابا مدة من الزمن ، ثم أنشئت في جزء منه الخزانة التي ربما كانت تحتل جزءا من القسم الجنوبي من هذا القصر .

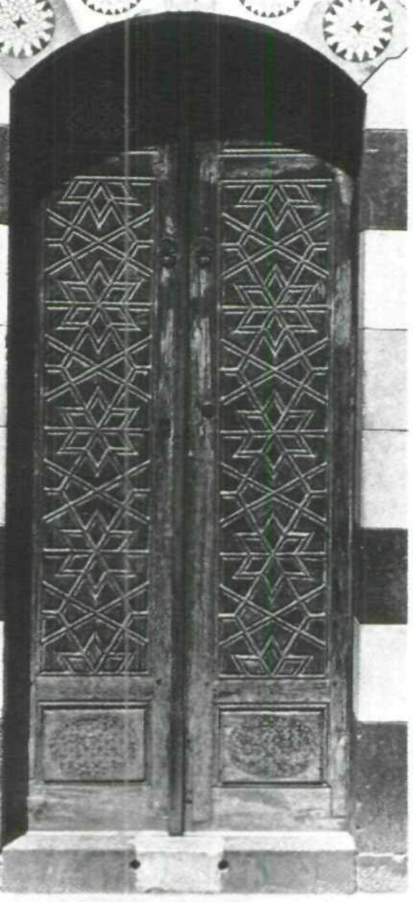
وفي العهد المملوكي أنشأ نائب الشام سيف الدين خليل تنكز الأشرفي (٧١٢–٧٤٠هـ) (١٣١٢–١٣٤٠م) في المكان نفسه قصرا هاما ، وجدنا من آثاره أجزاء من فسقية صنعت من الفسيفساء الزجاجية على شكل وردة ، نقلناها الى المتحف الوطني بدمشق . وعند اجراء بعض الاسبار في باحة قصر العظم وجدت آثار حمام قديم . (١) ويرجح أن جزءا من القصر المملوكي بقي ماثلا في العهد العثماني ، ولا ندري على الضبط

(١) حدثني بهذا الاكتشاف الأستاذ شفيق الامام محافظ متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم .

منظر عام للواجهات الجنوبية من قسم « الحرملك » حيث تبدو القاعة الرئيسية .



الايوان في القسم الجنوبي من قسم « الحرملك » .. وقد ازدانت واجهته بالرسوم والنقوش ..



باب قاعة الصناعات اليدوية النحاسية التابعة لق

هل بقي هذا الجزء وجدد ورمم عند بناء قصر العظم ، أم أنه نقض في أوائل العهد العثماني وأنشئ قصر صغير بقي جناح منه عند بناء القصر . ويقع هذا الجناح القديم في الزاوية الجنوبية الشرقية ، وهو حتما أقدم من القصر الجديد الذي بناه أسعد العظم ، ويبدو الفاصل بينه وبين الانشاء الجديد الملاصق سنة ١١٦٣هـ .

مبنى قصر العظم وقيمته الفنية

تتميز أحياء دمشق القديمة بأسواقها المسقوفة وحاراتها وأزقتها الضيقة ، وأن مظهر الدور الأثرية (٢) من الخارج بسيط جدا ، فاذا دخلها الزائر ولج أولا دهليزا مظلما يؤدي بعد تعرج وانقباض الى باحة سماوية مشرقة ، تزهو بأشجارها وزرائعها وزهورها وتحف بها من جميع الجوانب واجهات القاعات والايوان والرواق التي تنم عن الابهة والرواء .

ويكاد يكون هذا الأسلوب في تخطيط البناء عاما ، وكأنه يرتكز على دراسة نفسية توحي لزائر الدار في بادىء الأمر بالوحشة ، ثم لا يلبث أن ينفرج أمامه منظر يأخذ بمجامع القلوب ، فيمتلئ انتعاشا وانشراحا .

وقصر العظم أحد هذه الدور ، لكن مظهره الخارجي ليس متواضعا ، بل له بوابة فخمة ، ضمنها باب صغير يطلق عليه (باب خوخة) .

مخطط القصر

يشتمل مخطط القصر على الأقسام التالية :

* **دهليز طويل:** منكسر تتبعه غرفتان للحرس، وهو يؤدي الى جناحين كبيرين ، اذا اتجهت يسارا نحو الشمال قليلا ثم الشرق ، فانك تمر من دهليز صغير يفضي الى الجناح الأول وهو « جناح الحريم » .

* **جناح الحريم :** وكان يطلق عليه بالتركية (الحرملك) ، وهو أجمل أقسام القصر وأوسعها وأغناها ، له باحة سماوية متسعة فيها حوض كبير للأشجار والزرائع وبركة مستطيلة كبيرة وأخرى مضلعة ، تتحلق حولها في الطبقة الأرضية احدى عشر قاعة كبيرة وايوان ورواق وبعض المنافع ، وتشرف عليها غرف الطبقة العليا .

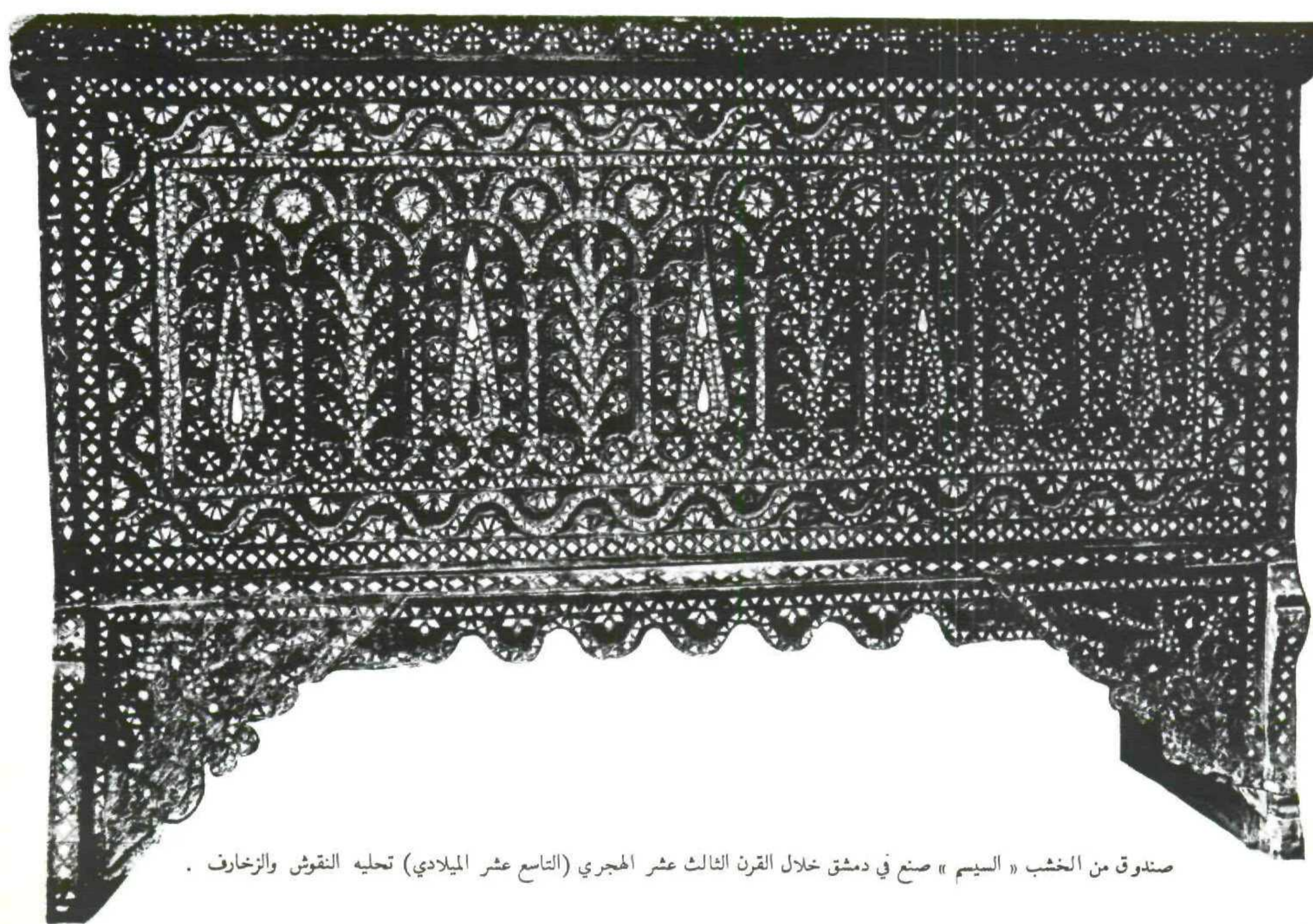
واذا عدت الى المدخل واتجهت من الدهليز يمينا نحو الجنوب ، بلغت الجناح الثاني وهو « جناح الضيوف » .

* **جناح الضيوف :** وكان يطلق عليه (السلاملك) ، وهو ذو باحة متوسطة وأحواض للزرائع وايوان هام وخمس قاعات كبيرة في الطبقة الأرضية وبعض المنافع ، ويتبعه عدد من الغرف في الطبقة العلوية .

* **الحمام :** وهي شبيهة بالحمامات العامة ، ولكنها على نطاق مصغر ، وتقع بين السلاملك والحرملك وهي مؤلفة من ثلاثة أقسام : البراني وهو معتدل الحرارة ، والوسطاني وهو دافئ ، والجواني وهو حار . وهذا الأخير يتألف من ردهات صغيرة ومقاصير مجهزة بصنابير باردة وساخنة وأجران رخامية في غاية من الاتقان والجمال .

* **دار الخدم :** يدخل اليها من الزاوية الشمالية الغربية من باحة الحرملك ، ولها باحة سماوية متوسطة المساحة تتوسطها بركة ، وفيها ثلاث

(٢) راجع مقالنا « دور دمشق الأثرية » في مجلة الأوليات الأثرية السورية ج ٣ (١٩٥٣) .



صندوق من الخشب « السيسم » صنع في دمشق خلال القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) تحليه النقوش والزخارف .

قاعات في الطبقة الأرضية ، وأبرز ما في هذا القسم المطبخ الكبير ومخازن المؤونة والأقبية تحت الأرض .

• **الاصطبل :** ويقع شمالي باب القصر ، ويتصل مباشرة بالطريق العام . وكان يوجد مقابل القصر مرأب للعربات لكنه هدم منذ أربعين سنة وأنشئ مكانه عمارة .

واجهات القاعات الخارجية

جميع هذه الواجهات مبنية من الحجر ، تتألف من رُضُم (٣) بيضاء تتناوب مع رضُم زهراء وصهباء وسوداء وتتميز واجهة القاعة الرئيسية بفخامة الباب الذي يصعد اليه من سلمين متناظرين ، وتزدان جبهة قوس الباب بحجارة بيضاء وصهباء متعاشقة ، تكتنفها من الأعلى خيوط وزخارف هندسية متشابكة تؤلف اطارا وتاجا مستطيلا ، رصعت بالرخام والصدف اللامع .

تبدو فوق تاج الباب لوحة تزيينية كبيرة ذات اطار من أحجار بيضاء وصهباء ، محدود بخيط رخامي أسود ، وفي الوسط اطار داخلي مزين بزخارف بارزة . وتتوسط هذه اللوحة البسملة وآية كريمة وأربعة أبيات من الشعر موزعة على شطرين ، رقمت بالخط الثلث وبالذهب على خراطيش لازوردية .

بسم الله الرحمـــن الرحيـــم

سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين

ببسم الله حـــل بهـــا التهانـــي
وحمـــد الله مـــن حسن البضاعـــة

وبالتـــوفيـــق والاتقـــان شيـــدت
كنـــوز نـــيّر أبدى شعـــاعـــه

(٣) رضم : جمع – مفردها (رضام) ككتاب وكتب : وهو صف الحجر في البناء ويطلق عليه البناؤون في بلاد الشام (مدماك) وجمعها (مداميك) .



القاعة الرئيسية لمجلس



القاعة الرئيسية لجلوة العروس ، الطزر ال

القاعة المخصصة للصناعات اليدوية النحاسية ، ويبدو فيها الطرّاق ..



...وكيله ، الطزر الجنوبي .

لهـا الأقـدار فاهـت في علاها
بتـاريـخ أتـى فـرد الصناعـة
أمـير الحـاج أسعـد في كمـال
حبـاه الله بالاكـرام قـاعـة
(سنة ١١٦٣)

وجميع نوافذ الواجهة تقريبا مستطيلة ولها أقواس منخفضة . ويعلو كل نافذة لوحة ذات اطار من الرخام الأبيض والأصهب المعشق ، تتضمن زخرفة فسيفسائية جصية .

هذا ، وليست جميع اللوحات متماثلة تماما ، وانما هي متشابهة ومتناسقة ، أما النوافذ العليا التي هي بمثابة مناور للقاعة ذات السقف الكبير الارتفاع (٤) ، فانه يميز منها نافذتان متلاصقتان عاليتان تقعان باستقامة الباب ، ثم تتناوب الى الجانبين نوافذ مستطيلة مع كوات دائرية . واذا قلب الزائر ناظريه في الواجهات الأخرى ، كتلك التي تحوي الايوان الكبير (٥) في الجهة الشمالية من الباحة ، وتلك التي تحوي الرواق الرشيق (٦) في الجهة الجنوبية ، فانه يشعر بالارتياح والانسجام .

ولو تأملنا بعض تفاصيل البناء كجبهات الأقواس وحنياتها وجدران الأواوين لوجدناها مزينة بزخارف هندسية دقيقة ذات فصوص ملونة (٧) . فيها تنويع بديع . ويميز بين محاريب الايوان

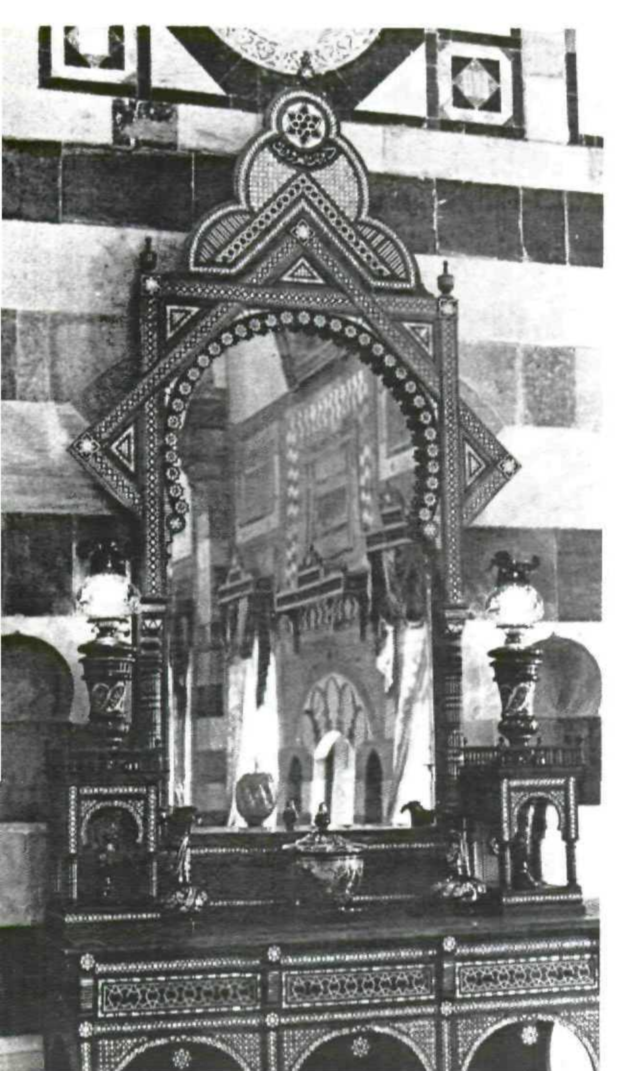
(٤) يحسب الناظر من الخارج أن مبنى القاعة ذو طبقتين ، بينما هو من طبقة واحدة ، لكن سقفه مرتفع . هذه القاعة وبعض غيرها تتميز بهذا السقف البالغ الارتفاع .

(٥) الايوان في الجهة الشمالية ملجأ الأسرة في الصيف .

(٦) الرواق من الجهة الجنوبية معرض لأشعة الشمس الدافئة فهو الملاذ في فصل الشتاء .

(٧) يطلق على هذه الصنعة البناؤون المحدثون (الأبلق) وهو تقليد للفسيفساء الرخامية القديمة ترسم الأشكال الهندسية على الحجر ثم تنحت بالتجويف وتملأ بالجص الملون .





المرآة الكبرى في القاعة الرئيسية ، الطزر الشرقي .

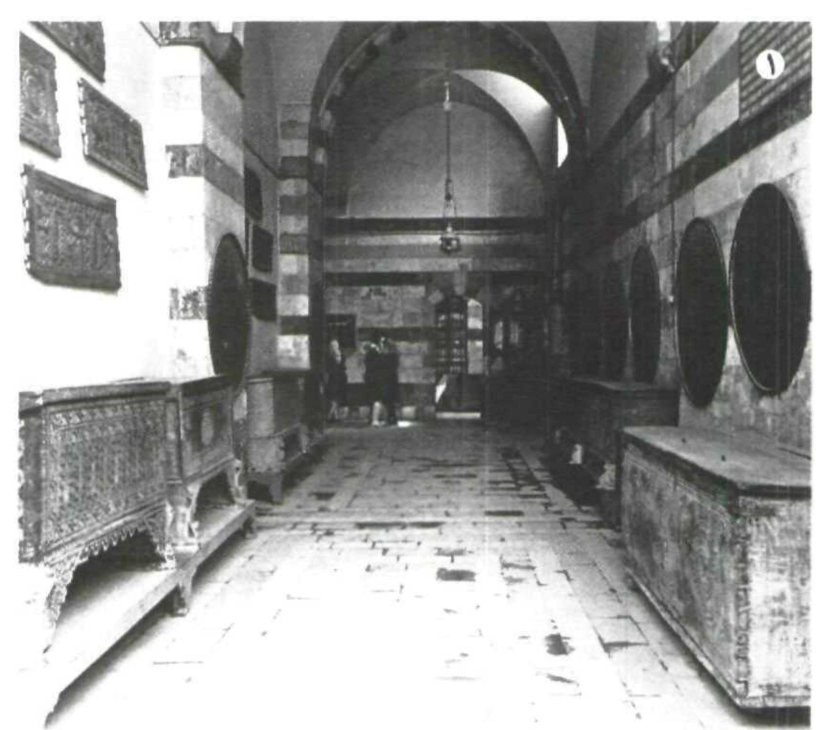
مشكاوات (٨) لطيفة تزدان بمصابيح قديمة . أما أطر النوافذ العليا فمبنية من الحجر القرميدي الطري ، ومزينة بزخارف هندسية بارزة ورفاريف مخرمة بالغة الدقة . كما تزدان تيجان الأعمدة بمقرنصات عربية متنوعة ، والأبواب وأغلاق النوافذ الخشبية بخيوط متشابكة هندسية تتحلى بحلقات نحاسية مخرمة .. ومما يلفت النظر بصورة خاصة الفسقية المركبة في عتبة الرواق المؤلفة من مشقفات رخامية ملونة نضّدت بشكل معجب، وكذا الفسقيتان اللطيفتان في طرزي(٩) الرواق .

القاعات - ٧

تختلف قاعات القصر من حيث المخطط ، فمنها ما هو مؤلف من عتبة (١٠) وثلاثة طزرات ومنها ما هو مؤلف من عتبة وطزرين متناظرين ، ومنها ما يقتصر على طزر واحد واسع مع العتبة .

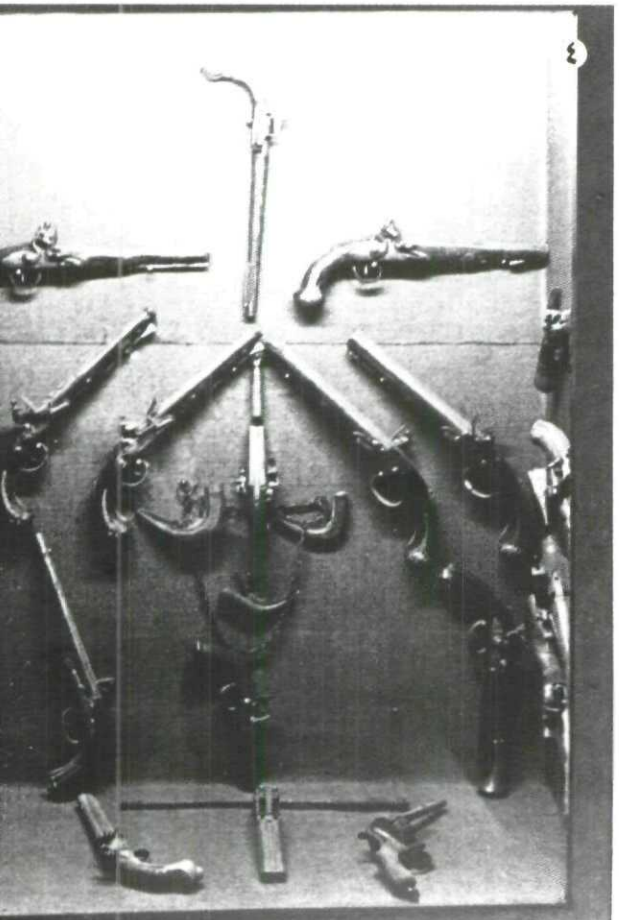
أما القاعة الرئيسية في جناح الحريم فمؤلفة من ثلاثة طزرات ، وسقوفها وأطنافها مغوشاة بكسوة خشبية (١١) مزينة بزخارف ملونة ومذهبة ، وجدرانها من الحجر النحيت ، ومؤلفة من رضم زهراء وسوداء متناوبة ، وفيها مصبات ومكتبات تتخللها مشكاوات تزدان بمصابيح . وفي صدر الطزر الأوسط مصب ذو نصف قبة مقرنصة ، محلى في أعلاه بلوحة رخامية فسيفسائية على جانب كبير من الدقة والجمال ، وفيه سلسبيل تترقرق على صفحته الخزفية (١٢) مياه صافية ، تشيع من نافورة الفسقية في العتبة جوا من البهجة والحبور .

وجبهة الباب من الداخل تشبه جبهته من الخارج ، وتعلوه لوحة رخامية فسيفسائية دقيقة


١


٣


٢


٤

الصنع ، يجاورها من الجانبين لوحتان فسيفسائيتان لا تقلان عنها ابداعا وبهاء . ويوجد في هذه القاعة مقصورتان اضافيتان ملاصقتان للطزر الأوسط ، ومقصورة ثالثة تلي الطزر الأيمن . وهذه المقاصير مخصصة في الأصل للضيوف .

ومن ناحية أخرى ، فان جميع قاعات القصر في الطبقة الأرضية تتحلى بالسقوف والكسوات الخشبية التي تتضمن مكتبات ومحاريب ومشكاوات تزدان جميعا بالتحف والنفائس

---

(٨) المشكاة فجوة غير نافذة في الجدار تستخدم لوضع مصباح أو قنديل .

(٩) الطزر كلمة دخيلة وتعني أحد أجنحة القاعة ، وتكون أرضه في الأصل أعلى من مستوى العتبة .

(١٠) هو القسم المنخفض من القاعة على مستوى عتبة الباب ، تتوسطه بركة صغيرة من الرخام الملون أو فسقية لطيفة .

(١١) احترقت هذه القاعة سنة ١٩٢٥ ، فجدد بناؤها كما كانت في الأصل لكن سقوفها وأطنافها الخشبية لم تستكمل جميعا ، بل اكتفي بتركيب سقف وأطناف للطزر الأوسط من مبنى معاصر تقريبا لمبنى القصر .

(١٢) كانت هذه الصفحة المنحدرة في الأصل – حسب ما نراه في هذه القاعة – من الرخام المجزع (المشقف) والملون ، عندما رممت بعد الحريق ركب فيها ألواح من الخزف الأوروبي وهو لا يتناسب مع أي جزء من أجزاء القاعة .

---

١ – الدهليز الذي يربط المدخل بجناح «السلاملك».

٢ – الرواق الشمالي في قسم « الحرملك » بالقصر ، وتبدو في العتبة فسقية من الرخام المشقف .

٣ – مجموعة من «الأراجيل» المصنوعة من الزجاج والمحفوظة في قصر العظم بدمشق ..

٤ – قاعة السلاح الناري التابعة للجناح الجنوبي في قسم «الحرملك» حيث تبدو نماذج مختلفة للأسلحة النارية .

٥ – مدخل القاعة الرئيسية التابعة لقسم « الحرملك » في القسم الجنوبي من قصر العظم ..

٦ – حجرة الاستحمام التابعة للجناح الجنوبي في قسم « الحرملك » بالقصر ..



والمصابيح الفاخرة ، يضاف الى ذلك فسقيات المياه والزخارف الرخامية والخزفية ، وخاصة في في مصبات (١٣) القاعات .

وتتضمن الكسوة الخشبية في أعلى الجدران لوحات كتب عليها بالذهب آيات قرآنية وأشعار تنتهي بالتاريخ ١١٦٣ . وقد تكرر هذا التاريخ في عدة قاعات ، وهو مطابق للتاريخ المذكور على اللوحة الحجرية التي تتصدر باب القاعة الرئيسية (١٤) .

أما غرف الطبقة العليا فهي أيضا مكسوة بالخشب ومزينة ببعض الخزف ، ومقتصرة على ما يكفل راحة الأسرة ومتطلبات الحياة اليومية ، الخالية من البذخ والترف .

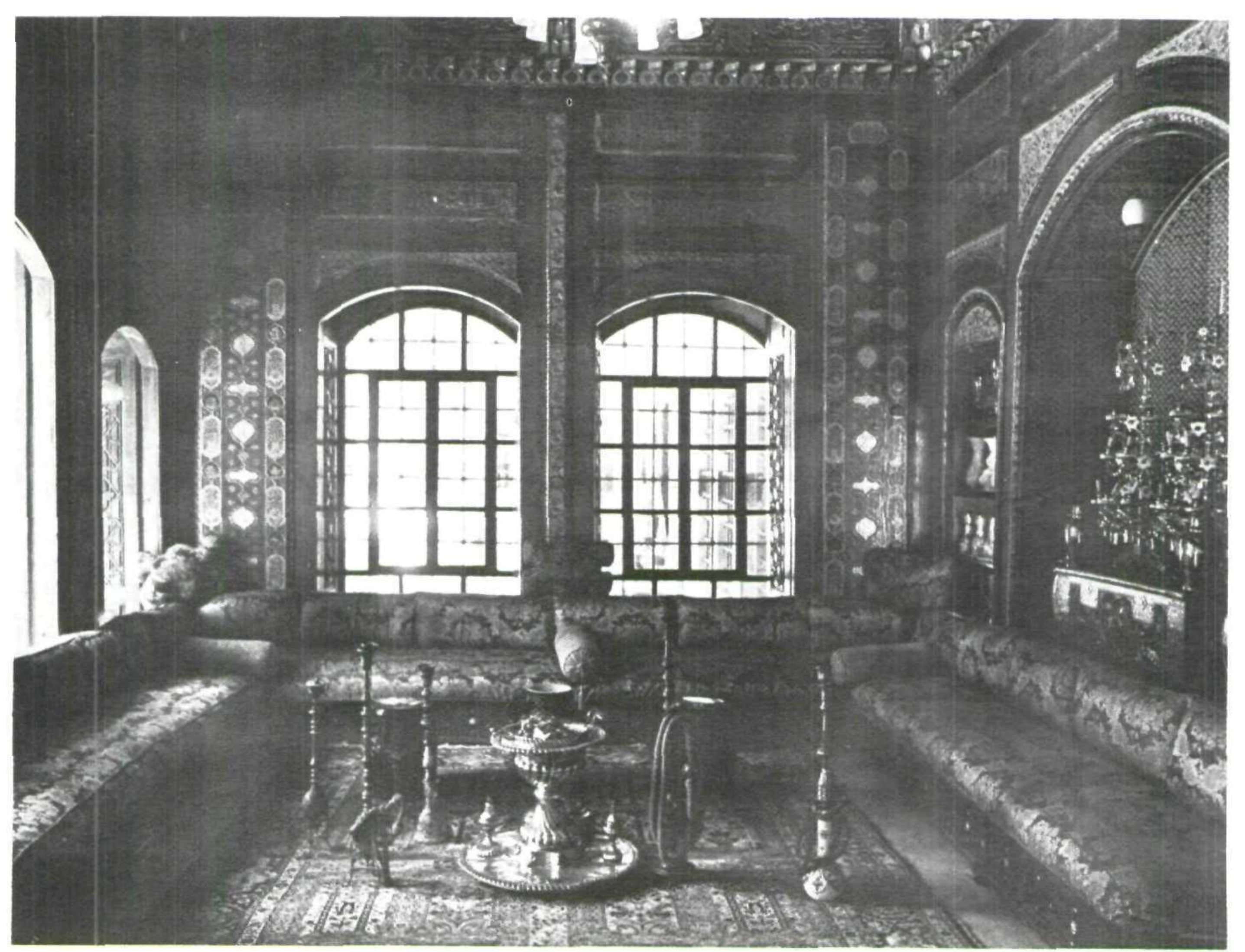
هذه أمثلة سريعة عن حياة القصر المترفة وقيمته الفنية التي يمكن أن نستشفها من خلال الوصف المقتضب .

ان هذا القصر ليعتبر مثالا حيا عن دور دمشق القديمة ، حفظ ورمم وأحل فيه متحف التقاليد الشعبية والصناعات اليدوية الدقيقة ■

محمد أبو الفرج العش – دمشق

(١٣) المصب في القاعة ، فجوة عالية في صدر العتبة مقابل باب القاعة ، أو يقابل الطزر ، يتفنن البناؤون بتصميمه أجمل وأغنى الزخارف الرخامية والخزفية ، ويكون في أعلاه على الأغلب قبة مقرنصة يعلوها تاج مهيب . وقد سمي المصب مصبا ، لأنه في الأصل يتضمن سلسبيلا يصب ماؤه على صفحة رخامية ، كا أشرنا الى ذلك عند وصف القاعة الرئيسية .

(١٤) يدعو هذا للعجب لأن مبنى كبيرا كهذا لا يمكن أن يتم بناؤه في سنة واحدة .



القاعة الرئيسية في القصر يتوسطها موقد اعداد القهوة العربية ..

تصوير : خليل أبو النصر

العرب والكوزموغرافية

بقلم الدكتور نقولا زيادة

تحدثنا فيما مضى عن مصادر المعرفة الجغرافية عند العرب ، وقفينا على ذلك بالجغرافية الرياضية عندهم ، وانتقلنا بعد ذلك الى المدرسة الجغرافية العربية، بما فيها من مسالكيين وبلدانيين ، ثم عرضنا للمعاجم والموسوعات ، وأجزنا بعد ذلك بالرحالة محاولين أن نبين أثرهم في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب .

واليوم نود أن نتحدث عن مجموعة من المؤلفين وضعوا كتبا أساسها تصور الأرض ، لا وصفها ، ومحاولة اكتناه الصلة بين الأرض والكون بكامله . لكنهم ضمنوا كتبهم الكثير من أخبار العجائب والغرائب ، أكثرها مما يشوق القارىء دون أن يكون لهسوى أساس ضئيل من الصحة، لكن الأسطورة نسجت حول هذا الأساس الضئيل ثوبا فضفاضا من الخيال.

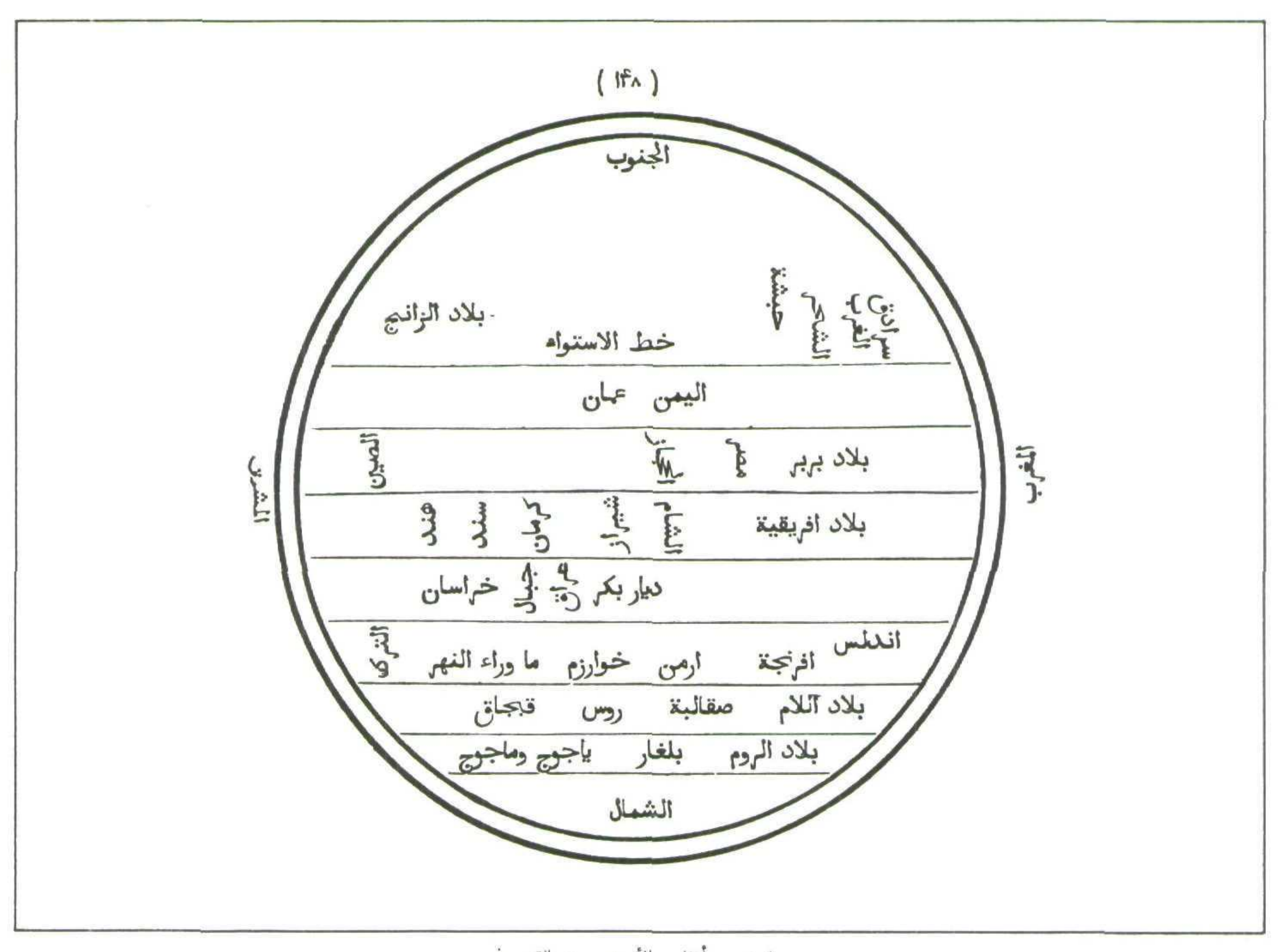
في هذا المجال ثمة أربعة كتاب برزوا بشكل ملحوظ بالنسبة لقرائهم ومعاصريهم ، وبالنسبة للباحثين في العقود الأخيرة ، وهؤلاء هم :

- « أبو حامد الغرناطي » المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م) واسم مؤلفه « تحفة الألباب ونخبة الاعجاب » .
- « زكريا بن محمد القزويني » المتوفى سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) وله « آثار البلاد وأخبار العباد » و « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » .
- « الدمشقي » المعروف بشيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) وصاحب كتاب « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » .
- « سراج الدين بن الوردي » المتوفى سنة ٨٦١هـ (١٤٥٧م) مؤلف « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » .

هؤلاء المؤلفون الأربعة هم أصحاب التآليف الكوزموغرافية ، أي الكتب التي تصف الكون ، وتحاول تصوره وتفسيره ، فتذكر صفات الأقاليم والمدن من الجهة الواحدة ، ثم تنتقل، ومرات يكون الانتقال في الفقرة نفسها أو الصفحة ذاتها ، لتذكر غريبة أو عجيبة لا أساس لها من الصحة . والغريب أن بعض هؤلاء المؤلفين ، مثل أبي حامد الغرناطي ، يكون غاية في الدقة في وصفه لمنطقة زارها ، ثم ينتقل فيذكر عنها شيئا لم يره بنفسه ، ولكن نقله عن غيره .

وحري بالذكر أن تصور الكون ووصفه كوزموغرافيا عرفه من قبل أمثال المسعودي والبيروني . لكن هذين المؤلفين كانا ينظران الى الأمور نظرة علم ، بينما كتابنا المتأخرون كانوا يرون في ذلك غرابة وعجبا . ولعل الأمر لا يعدو أن يكون نتيجة الحالة الفكرية في الفترة التي عاشت فيها هذه الجماعة ، من « أبي حامد » الى « ابن الوردي » ، أي زمن تأخر في الكتابة الجغرافية وغيرها .

ولنقدم كلا من هؤلاء الكتاب الأربعة قبل التحدث عن المواضيع التي طرقوها . فأبو حامد الغرناطي أندلسي ولد في غرناطة سنة ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) ، وظل فيها وفي غيرها من مدن الأندلس الى سنة ٥٠٠هـ (١١٠٧م) ، وكان يتلقى العلم على أهله . وفي تلك السنة غادر بلاده الى المغرب الأقصى ، فطوف في أنحائه حتى جنوبه ، ثم انتقل الى تونس فالاسكندرية فالقاهرة . وكان في كل مكان يجلس على أساطين العلم متعلما مستفيدا. وكان رحيله عن مصر في عام ٥١٥هـ (١١٢١م) فنزل



توزيع أقاليم الأرض عن القزويني

دمشق وتنقل في أنحاء سورية ولبنـــان ، وفي السنة التالية حل في بغداد . ويبدو أنه جعل بغداد مستقرا له حيث أخذ يتنقل سائحا زائرا رحالة ، فزار ايران وتركستان ومنطقة الفولغا وبلاد المجر ، وأدى فريضة الحج . وأخيراً خرج من بغداد سنة ٥٥٦هـ (١١٦١م) الى الموصل حيث كتب « التحفة » ، ثم انتقل الى حلب فدمشق حيث توفي سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م) « .. وكان في الثانية والتسعين من عمره . وقد قضى معظم سني حياته يجوب الآفاق ويرمي بنفسه في المخاطر ، يدفعه الى ذلك شوق عظيم الى المجهول ورغبة لا تخبو في الوقوف على غرائب هذا الكون الواسع وبدائع صنع الله فيه .. »

والقزويني عربي النجار ، قزويني المولد والنشأة . ولد سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) . ويبدو أنه تلقى من العلم ما وصلت اليه يده قبل أن انتقل الى الشام حول سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م) ، حيث تعرف الى الصوفي الأندلسي الشهير « ابن العربي » واتصل في الموصل بالأديب ابن الأثير (وهو أخو ابن الأثير المؤرخ) . وقد ولي القزويني القضاء في واسط والحلة بالعراق ، وتوفي سنة ٦٨٢ (١٢٨٣م) في بغداد ، وذلك بعد احتلال « هولاكو » التتري لها بخمس وعشرين سنة .

وللقزويني كتابان ، أحدهما « آثار البلاد وأخبار العباد » وهو كتاب في الجغرافية ، والآخر « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » ، وهو الكتاب الذي يعنينا أمره في هذا المقام .

أما شمس الدين محمد بن أبي طالب ، الذي عرف فيما بعد بالدمشقي ، فقد ولد في دمشق سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) ، وبذلك يكون قد وعى في صباه وشبابه هذا التوتر والاضطراب الذي أحس به الشرق الاسلامي بسبب احتلال المغول لبغداد والقضاء على الخلافة العباسية واجتياحهم لديار الشام ، كما أنه أحس ، فيما بعد ، بالاطمئنان الذي شمل ديار الشام ومصر بسبب قيام دولة المماليك . وقضى « الدمشقي » معظم سني حياته بدمشق ، ولأنه كان أماما بمسجد « الربوة » عرف باسم « شيخ الربوة » . وكانت له نزعة صوفية ، ولعل هذا ما حمله على اعتزال العالم وقضاء السنوات الأخيرة من حياته بناحية من فلسطين ، وقد توفي سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) .

ويبدو أن الدمشقي كان واسع الاطلاع متبحرا في ثقافة عصره في التصوف والدين والفقه والجغرافية . وكتابه الذي يهمنا الآن هو « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » .

وآخر المؤلفين الأربعة الذين نوليهم العناية في هذه المقالة هو « سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي » ، وهو ، على الأرجح ، قد نشأ وترعرع في حلب . ولم يتمكن الباحثون من الاهتداء الى سنة مولده ، ولكنهم يكادون يتفقون على أنه توفي سنة ٨٦١هـ (١٤٥٧م) . ولسنا نعرف عنه الا أنه عاش في حلب مدة طويلة في رعاية صاحبها .

* * *

إنّ لهذه الكتب التي يمكن أن تشملها كلمة «كوزموغرافية» صفات عامة ، وان كان بعضها يختلف عن البعض الآخر في هذه الصفات . فمنها أنها تعرض للقوانين العامة التي تتحكم في النظام الشمسي بقدر ما قبلوه أو أدركوه . ومنها أنها تعنى بجميع الظواهر الطبيعية التي تتعرض لها الكرة الأرضية من حيث الزلازل والبراكين وظهور الجزر . واختفاؤها أحيانا . ومنها حرصها على التحدث عن المعادن والنبات والحيوان . وكثير منها يقدم لنا معلومات «اثنوغرافية» قيمة . وتفتقر كلها تقريبا الى الاصالة في البحث والعمق في التحليل . فالمعلومات التي جمعها هؤلاء الكتاب غاية في الاتساع ، لكن ليس بينهم من صاغ نظرية أو أتى بجديد في عالم الفكر . وتتفق جميعها في أنها مصنفات تركيبية تعرض المادة العلمية بطريقة عجائبية تلذ للقارىء العام .

والقزويني بشكل خاص «.. يتميز بالوضوح في الأسلوب الذي يبلغ به في واقع الأمر درجة رفيعة . ولديه مقدرة فائقة في تبسيط أكثر الظواهر تعقيدا ..» غير أن الميزة الرئيسية لهذه المؤلفات عنايتها بالعجائب والغرائب ، ومؤلفوها كانوا ، في غالب الأحيان ، أصحاب نزعة تصوفية دينية فكانوا يرون في هذه الغرائب معجزات الخالق «.. وكثيرا ما اتخذت رسائلهم طابع الموعظة والتهذيب .. » ولنأخذ على سبيل المثال ما ذكره «أبو حامد الغرناطي» حول هذه النقطة بالذات . ففي المقدمة يرتب العقول في درجات ، فيقول :

فعقول الملائكة والأنبياء أكبر (من عقول جميع العلماء، وعقول العلماء أكبر) من عقول (جميع) العوام في الدنيا ، وعقول العوام أكبر من عقول النساء ، وعقول النساء أكبر من عقول الصبيان . وبقدر هذا التفاوت يقع الانكار لأكثر الحقائق من أكثر الناس لنقصان العقل . لأن الذي يعرف الجائز والمستحيل يعلم أن كل مقدور بالاضافة الى قدرة الله تعالى قليل .

ونحن اذا أخذنا هذه الكتب التي ذكرنا من قبل ، واحدا بعد الآخر ، وجدنا في ذكر فصولها ما قد يوضح محتوياتها . فكتاب «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب» للغرناطي فيه أربعة أبواب . يبحث الباب الأول في صفة الدنيا وسكانها من أنسها وجانها ، والثاني في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان ، والثالث في صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار ، وما في جزائرها من أنواع النفط والنار . أما الباب الرابع فيبحث في صفة الحفائر والقبور وما تضمنت من القفار الى يوم النشور .

وكتاب القزويني «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» ينقسم الى قسمين يعالجان العالمين العلوي والسفلي كلا على حدة . والقسم الأول الذي يبحث في العالم العلوي يتناول الكلام على ما في السماء من أجرام ، أي الشمس والقمر والنجوم والملائكة ، سكان ذلك العالم ، وفيه بحث عن التوقيتات والتقاويم العربية والسريانية لارتباطها بحركات الاجرام السماوية .

أما القسم الثاني الذي يبحث في العالم السفلي ، أي الأرض وظواهرها ، فيتناول فيه المؤلف ما عرف عن العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب) مفصلا الحديث عنها . ويقسم المعمورة الى سبعة أقاليم ، ويفصل أسباب حدوث الزلازل والبراكين ، وتكوين الجبال ، ونشأة الأنهار والينابيع ، ثم ينتقل الى ممالك الطبيعة الثلاث ، المعدنية والنباتية والحيوانية . والانسان هو منطلق الحديث في هذه المملكة ، فتركيبه العضوي وخصائصه الأخلاقية ومميزات شعوبه مفصلة . ويلي ذلك حديث عن الجان والغيلان . ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن مصنف «القزويني» هو أكبر أثر للكوزموغرافية العربية .

«ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر» للدمشقي فيه تسعة أبواب ، أولها فيه مقدمة في شكل الأرض وأقاليمها السبعة وفصول السنة . وهي مقدمة تقليدية لا تختلف كثيرا عما ألفناه في كتب الجغرافية السابقة . وأما الباب الثاني فيبحث في المعادن السبعة الذائبة المتطرقة ، وذكر طبائعها وخصائصها وفعائلها وما يمت الى ذلك كله بصلة . ويتناول الباب الثالث الأنهار الجارية والعيون والآبار وينابيعها المختلفة . ويدور الباب الرابع على كثرة المياه وما قالت القدماء وفي احاطته بالأرض . ويختص الباب الخامس بذكر بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ووصف حدوده ونواحيه . ويتناول الباب السادس ذكر بحر الجنوب (المحيط الهندي) وما يتفرع منه . ويخص المؤلف الباب السابع بالممالك الشرقية الكبار وأصقاعها وكورها ، كما يخص الباب الثامن بالممالك الغربية من مصر الى الأندلس مرورا بأقطار المغرب . أما الباب التاسع والأخير فيختص بوصف انتساب الأمم الى سام وحام ويافث ، وذكر ما امتازوا به وأسماء شهورهم وخصائص البلاد والانسان .

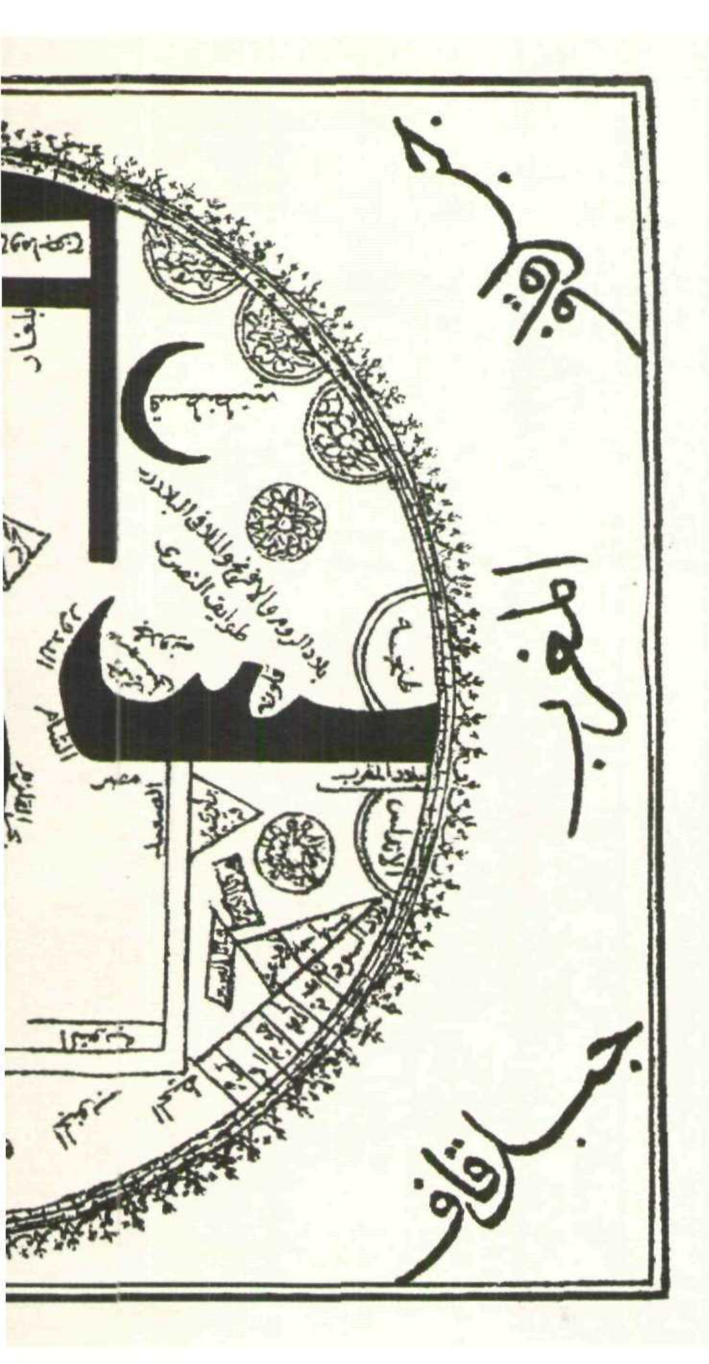
و «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردي ، يختلف توزيع فصوله باختلاف النسخ التي نشرت طبعة معينة عنها . والنسخة التي بين أيدينا هي طبعة القاهرة سنة ١٣١٤هـ ، وقد قسم الكتاب فيها الى خمسة وعشرين فصلا . أولها في ذكر المسافات ، وثانيها في صفة الأرض وتقسيمها ، وثالثها ، وهو أطول الفصول ، في ذكر البلدان والأقطار . ثم تليها ثمانية فصول قصيرة تتحدث عن البحار وما فيها ، وثلاثة فصول عن الأنهار والعيون والآبار ، وفصل واحد في الجبال ، وفصل عن الأحجار ، وخمسة فصول في النباتات والفواكه والبقول الكبار والصغار والحشائش المختلفة والبذور ، وثلاثة فصول في الحيوان ، والفصل الأخير في خصائص البلدان . (وفي الطبعة المذكورة ص ١٧٥–٢١٩ فصل طويل عن مسائل عبد الله بن سلام للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، وقصيدة جامعة لغالب أحوال القيامة ، هي في رأي أكثر الباحثين ، زيادات من عمل النساخ لا من وضع ابن الوردي) .

° ° °

ويجدر بنا ، وقد تعرفنا الى المؤلفين ومؤلفاتهم ، أن نشير الى مزايا كل منهم على انفراد ، وهذه يمكن اجمالها فيما يلي :

كان أبو حامد الغرناطي رحالة جواب آفاق ، فقد تنقل في أنحاء العالم الاسلامي وخارجه وعمل في التجارة . ولذلك كانت تجاربه واختباراته واسعة ، ومعرفته العملية كبيرة ، ومشاهداته كثيرة . وهذا يبدو جليا وواضحا في تآليفه . فتراه يتحدث عن منارة الاسكندرية وأهرامات مصر وتجارة بحر الخزر حديث العالم المدقق . لكن الغرناطي لم يكن علامة ولا ادعى أنه عالم . ولم يكن يرمي الى غاية معينة أو هدف تعليمي خاص . وكل ما رمى اليه ، على حد تعبير «دوبلر» «.. هو تسلية جمهوره ، ومن هنا جاء اهتمامه الدائم بتقديم استطراد بعد آخر ليزهى بحشد مجموعه المتنوع اللطيف من الحكايات والأقاصيص .. »

ولعلنا ننصف الغرناطي والباحثين الذين تعرضوا لدراسة هذا النوع من الأدب الجغرافي العربي اذا نحن نقلنا للقراء تقدير «كرتشكوفسكي» للغرناطي ، اذ يقول :



خار

«ومن المستحيل تجاهل الغرناطي في تاريخ الأدب الجغرافي ، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القراء ، لأن المنهج الذي ابتدعه في الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة في وحدة كوزموغرافية قد راق كثيرا للأجيال التالية . وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة ، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافي القرن الثالث عشر القزويني واستعمله كل من ابن الوردي وابن اياس في بداية القرن السادس عشر ، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه الى غيرهم ، فرجع اليه عالم الحيوان الأديب الدميري (القرن الخامس عشر) وصاحب المجموعة الأدبية الذائعة الصيت الأبشيهي في القرن الخامس عشر . وقد خمّن أبو حامد تخمينا صحيحا حاجة الأجيال القادمة الى هذا الضرب من المؤلفات ، فمنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما يلازمه من عنصر الغرائب محببا الى الطبقات الشعبية بشكل خاص ، وليس في مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية في ميدان العلم ، اللهم الا اذا استثنينا نقاطا معينة فيه . »

أما القزويني فقد اقتصر تنقله على رقعة تمتد من قزوين الى شمال العراق ، وهي رقعة صغيرة اذا قورنت بأسفار الغرناطي . لكن القزويني شهد الغزو المغولي وعرف ما جره على البلاد التي كان يعرفها من أهوال ، وهي تجربة شخصية هامة . ولكن أثر هذه التجارب لا يظهر في مؤلفه ، فنظرته الى الغرائب والعجائب نظرة من يسلم كل أمر لله عز وجل ويقبل بحكمه . وبذلك فالذي يمكن أن يقال عن القزويني هو أنه ناقل مثالي ، ولا شك أن اطلاعه الواسع ومادته الغزيرة يسرت له أن يكون عمله مزيجا تركيبيا ، بحيث يبدو لنا « لوحة متعددة الألوان تحفل بمادة جغرافية وافرة . » والقزويني يزين كتابه بأشكال ورسوم كثيرة ، بحيث يمكن تتبع بعض آرائه فيها .

ويمثل الدمشقي الرجل الذي ينقل العلم والمعرفة عمن سبقه اليهما دون أن يسعى الى العلم رحلة او انتقالا . فقد قضى حياته في دمشق ثم تصوف وتزهد واعتزل الناس حتى وفاته . ولعل ميزة الدمشقي هي احتفاله بمعطيات النبات والحيوان والمعادن وطبقات الأرض . ولذلك فهو مفيد لدراسة التاريخ الطبيعي . والدمشقي يزودنا بمعلومات قيمة عن ديار الشام وفلسطين . فهو لا يكتفي بوصف دمشق مثلا ، ولكنه يتحدث عن صناعة استخراج ماء الورد ، ويضع بين أيدينا رسما يبين طريقة استقطاره . ولا غرابة في ذلك فقد عرف الدمشقي بلاده مباشرة ، بينما كان ينقل أخبار غيرها عمن سبقه دون تمحيص أو نقد ، أما لأنه لم يرد ذلك أو لأنه لم يستطعه .

أما « ابن الوردي » فانه يختلف عن نظرائه من الكتاب في أنه ركز على العجائب والغرائب بحيث كانت الأصل عنده ، وقد نثر فيها ، هنا وهناك ، حقائق ومعلومات . وقد وضع ابن الوردي كتابه تلبية لطلب « شاهين المؤيد » ، قائد قلعة حلب . فلما هم بالكتابة رجع الى ما كان بين يديه من الكتب ، فقرأها ونقل عن الكثير منها . وخريطة ابن الوردي ، التي يعرضها علينا في أول كتابه ، تظهر عليها الروم والافرنج وغيرهم من طوائف النصارى ، كما يدور بها جبل قاف من جميع الجهات . وهنا تجد الحقيقة ممتزجة بالأسطورة من الأصل .

ولعل خير ما نفعله هو أن ننقل جزءا من مقدمة ابن الوردي ، ففيها توضيح لرأيه العام في كتابه . قال :

«وضعت دائرة مستعينا بالله تعالى على صورة شكل الأرض في الطول والعرض بأقاليمها وجهاتها وبلدانها وصفاتها وعروضها وهيآتها ، وأقطارها وممالكها وطرقها ومسالكها ومفاوزها ومهالكها ، وعامرها وغامرها وجبالها ورمالها وعجائبها وغرائبها ، وموقع كل مملكة واقليم من الأخرى ، وذكر ما بينهما من المتالف والمعاطب برا وبحرا ، وذكر الأمم المقيمة في الجهات والأقطار طرا ، وسد ذي القرنين في سالف الأحقاب على يأجوج ومأجوج كما جاء في نص الكتاب . وسميته « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » ، وبالله سبحانه الاعتصام وهو حسبي على الدوام ، ومنه أسأل السداد والتوفيق ، فانه أهل الاجابة والتحقيق..»

* * * *

حسب أنه من حق القارىء علينا أن نضع بين يديه نماذج مما وصل الينا من كتابات هؤلاء الكوزموغرافيين العجائبيين الغرائبيين . ولذلك فاننا



وردي

نقل هنا قطعة واحدة من كل من « التحفة » ، و « العجائب » ، و « النخبة » ، و « الخريدة » .

في الباب الثالث الذي عقده الغرناطي في صفة البحار وعجائب حيواناتها ، جاء قوله :

ولقد رأيت يوما وأنا على جانب البحر وقد جزر الماء بعد الظهر وانكشف جبل في البحر قريب من الساحل فرأيت على صخرة من تلك الجبل عددا من النارنج الطري الأحمر الذي كأنه قد قطع الآن من شجرة فقلت في نفسي (هذا قد وقع من بعض السفن فذهبت اليه فقبضت منها) واحدة فاذا هي متصلة بالبحر واذا بها حيوان يضطرب في يدي ويتحرك فتركته ونظرت اليه واذا فمه في موضع العرجون الذي يعلق النارنج وهو ثقب فيه خضرة كما يكون النارنج ، وهو يتحرك ويفتح فمه وكأنه يأكل (شيأ) وهو لين فلففت كم ثوبي على يدي وقبضت (عليه) مرة أخرى وعصرته (وجررته) فخرج من فمه مائية كثيرة وضم ولم أقدر أن أقلعه من مكانه فأخرجت سكينا كان معي ورمت قلعه عن الحجر أو قطعه فلم يؤثر السكين فيه شيئا وعالجت كل واحدة منها فلم أستطع لها على شيء فتركتها عجزا منها وهي من عجائب (خلق الله تعالى) ورأيت جميعها (أحياء) يتحرك وليس لها عين ولا جارحة من الجوارح الا الفم والله أعلم لأي شيء تصلح .

ويكون أيضا في البحر (نوع من) حيوان يشبه رأسه رأس العجل وله أنياب كأنياب السباع وجلده له شعر كشعر جلد العجل وله عنق وصدر وبطن وله رجلان كرجلي الضفدع يثب عليهما كما يثب الضفدع وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودي وذلك أنه اذا غابت الشمس ليلة السبت خرج من البحر وألقى نفسه في البر ولا يتحرك ولا يأكل ولو قتل لم يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد فحينئذ يدخل البحر ولا تلحقه السفن لخفته وقوته وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس فيبرأ ولا يجد النقوس ألما ما دام (ذلك)النعل في رجله وهو من عجائب الدنيا . »

وفي حديث القزويني عن المعادن وتحويلها ، يقول :

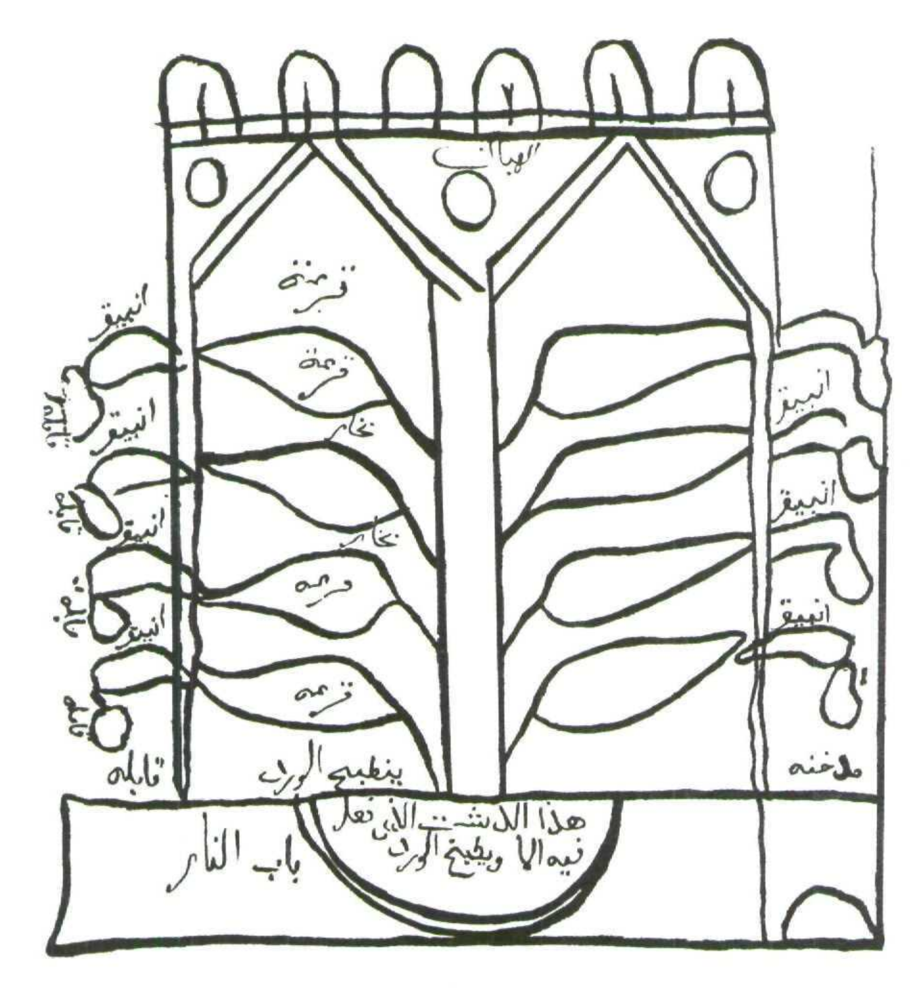
اقليمياء الذهب : قال أرسطو ان الذهب اذا خلط بغيره من الأحجار ثم أدخل النار للخلاص خلص جسمه ثم علاه حجر مشوب بسواد وبعضه على لون الزجاج وهو الحجر المسمى باقليمياء الذهب ينفع من وجع العيون ويذهب عنها البياض الحادث فيها وينفع من البلل الذي تحلب من العيون ، وقال غيره ينفع من ابتداء نزول الماء في العين ويدمل القروح الخبيثة وينقي أوساخها ويأكل لحومها الزايدة وتجففها بغير لذع .

اقليمياء الفضة : قال أرسطو ان الفضة أيضا اذا أدخلت النار للخلاص تتخلص من الأجساد التي خالطتها ثم يعلوها جسم يسمى اقليمياء الفضة وهو أقل نفعا من اقليمياء الذهب وهو نافع من القروح والسعفة والجرب طلاء مع بعض الأدهان ، وقال غيره أنه ينفع من وجع العين ذروراً وفي المراهم ينبت اللحم في الجراحات .

باهت : هو حجر أبيض في لون المرقشيثا البيضاء يتلألأ حسنا ، اذا وقع عليه نظر الانسان يضحك حتى يموت وزعموا أنه مغناطيس الانسان وله قصة في مدينة النحاس وهي أن من علا سورها يضحك وينجذب الى داخلها ذكروا أن في وسط هذه المدينة عمود من حجر باهت من علاها يجذبه به اليه وسيأتي ذكرها ان شاء الله تعالى في مقالة البلدان ، واذا أخذ الانسان الضحك من وقوع نظره عليه لا يبريه من ذلك شيء الى ما شاء الله ولا يبطل فعل هذا الحجر الا طاير صغير يقال له الفرفر وهو أصغر من العصفور ولونه أسود وله طرق حمر وعيناه حمراوتان ورجلاه كذلك زعموا أنه اذا وقع على هذا الحجر أبطل فعله .

وتعرض الدمشقي للمعادن . فذكر أنواع حجر المغناطيس بقوله :

حجر المغناطيس ومعدنه ببحر الهند وبجبل عند القلزم وبالأندلس وبناحية من خراسان وهو من الحجارة الحديدية ومن خواصه أنه يقوى جذبه للحديد .. وأجوده المعرق بالحمرة الذي لونه شبيه بلون الحديد وأفضله جذبا ما جذب منه نصف مثقال مثقال حديد وحمله ... وقال أرسطو في علة تكوينه ان المغناطيس ابتدأ في معدنه ليكون حديدا فعرض له الحر واليبس فصار حجرا صليبا شديد الصلابة لقلة الرطوبة في معدنه وغلظ اليبس المتصل به وهو جاذب للحديد بالخاصة . وقال عطارد الحاسب هو ثلاثة أنواع أحدها يجذب والثاني يهرب والثالث جانبه يجذب والآخر يهرب .



تقطير الورد للدمشقي

وحجر الماس مغناطيس الذهب فانه اذا قرب منه التصق به وأمسكه .

والذهب مغناطيس الزيبق حيث لقيه جذبه اليه ولصق به وامتزج به وكذلك اذا اختلطت برادة ذهب ورصاص ونحاس وحديد وقصدير وألقى عليه الزيبق طلبه برادة الذهب وأمسكه واختلط به دون باقي البرادات .

وحجر الفضة سماه أرسطو مغناطيس الفضة ، وهو حجر أبيض مشوب بحمرة اذا غمز عليه الانسان بيده صر كما يصر القصدير وليس في القصدير شيء منه ولا فيه شيء من القصدير وهو يجذب الفضة على خمسة أذرع .

وحجر الصفر سماه أرسطو أيضا مغناطيس النحاس الأصفر والأحمر وهو حجر مشوب بصفرة وغبرة وكمودة واذا قرب منه النحاس التصق به .

وحجر الرصاص سماه أرسطو مغناطيس الرصاص وهو حجر قبيح المنظر منتن الرائحة اذا ألقى منه دانق على عشرة دراهم رصاص عقدها فضة وقبلت السبك (والمطرقة هذا كلام أرسطو وقال الحاذق أن أرسطو أراد ذكر التسويد الأول من السواد الثاني المسمى أبار ويكون منه الجزء صابغا لثلثماية وعشرين جزاء والله أعلم) .

ومن هذه الحجارة مغناطيس اللحم قال أرسطو ان هذا الحجر يكون في البحر من صنفين حيواني ومعدني ، فالحيواني يعرف بأرنب البحر وهو حجر اذا ألقى عليه شيء من حيوان ليس عليه شعر لصق به فلم يقلع دون أن يتقلع اللحم ولا يسيل من موضعه دم ، والصنف الآخر اذا لصق باللحم اقتلعه من لحوم الحيوان الحي ومن لحوم الميت دونه .

وحجر يختلس العظام قال أرسطو هو حجر أصفر خشن المحسنة يجلب من بلاد بلخ اذا دنا من العظم اختلسه .

وحجر يختلس الشعر قال أرسطو هذا الحجر اذا ألح عليه انسان بالنظر ظن أنه شعر متلفف فاذا جسه باليد علم أنه حجر وهو متخلخل الجسم ليس في جميع الأحجار أخف منه وهو يحلق الشعر اذا مر به على أجساد الحيوان كما تفعل النورة وان طرح الشعر على الأرض التقطه .

وحجر الظفر قال أرسطو وهو حجر مشوب بغبرة لين المجسة متى مررت به على ظفر سلخه أو على قلامة الأظفار التقطها . وهذا الحجر مع لينه لا يعمل فيه الحديد ولا ينكسر بالماس .

وحجر يجذب القطن ، قال أرسطو وهو حجر يتكون في سواحل البحر من الملوحة لونه أبيض اذا وضع عليه القطن التصق به ولو كان منسوجا مع كتان .

وحجر يجذب الصوف قال أرسطو وهو حجر مدور أخضر اللون فيه عروق صفر يؤتى به من جزائر بحر الصين خفيف الجسم اذا دنا من الصوف وقع عليه حتى يغوص فيه .

وحجر يجذب الماء قال أرسطو هو حجر أبيض اذا شددته على سرة المستشفي ليلا وترك الى الصباح ثم جعل في الشمس قطرت منه قطرات من الماء الى أن لا يبقى منه شيء ثم يعاد ويشد أيضا ويفعل ذلك مرارا حتى يبرى المستشفي .

هرم الجيزة الأكبر كما رسمه الغرناطي

وحجر الزيت قال أرسطو وهو حجر أحمر مشاب بزرقة اذا أدنيته من الزيت طلبه الزيت حتى يدخل فيه وهذا الحجر يؤتى به من سفالة الزنج واذا وقع على ثوب زيت ومر هذا الحجر عليه لم يترك له أثر أصلا .

وحجر مغناطيس الخل هو أبيض يسمى الكزك اذا وضع في بقعة فيه اناء فيه خل انساق الخل اليه ودخل فيه حتى يتوسطه ويغلي الخل به ما دام فيه ، من غير سخونة ولا نار .

وحجر الكهربا يجذب القش والتبن . والكهربا صمغ شجر الخلنج وقد يتولد في وجه الأرض كالحصى وأجوده المسمى الشمعي لكونه مجزعا ببياض أصم ويلقط القش ورائحته تشبه رائحة الليمون ويسمى مصباح الروم ويوجد بالأندلس وبسواحل البحر تحت الأرض وبالواحات كذلك يوجد قطعا قطعا يجمعه الحراثون .

وقد خص ابن الوردي بحر القلزم (البحر الأحمر) وعجائبه وغرائبه بفصل جاء فيه قوله :

هذا البحر شعبة من بحر الهند جنوبيه بلاد بربر والحبشة وعلى ساحله الشرقي بلاد العرب وعلى ساحله الغربي بلاد اليمن والقلزم اسم لمدينة على ساحله وهو البحر الذي غرق فيه فرعون وهو بحر مظلم وحش لا خير فيه باطنا ولا ظاهرا وفي هذا البحر جزائر كثيرة وغالبها غير مسكونة ولا مسلوكة (فمن جزائره) جزيرة قريبة من ايلة يسكنها قوم يقال لهم بنو حداب ليس لهم زرع ولا ضرع ولا ماء عذب ، معاشهم من السمك وبيوتهم السفن المنكسرة ويشحذون الماء والخبز ممن يمر بهم من المسافرين وعندهم دوارة في سفح جبل اذا وقع الريح عليها انقسمت قسمين ويلقى المركب بين شعبين متقابلين فيثور الريح بينهما ويخرج من كليهما متخالفين فتنقلب المركب بمن فيها وقيل أن هذا الموضع غرق فيه فرعون . وأما عجائب هذا البحر فمنها سمكة تزيد على مائتي ذراع تضرب السفينة بذنبها فتغرقها (ومنها) سمكة مقدار ذراع بدنها كبدن السمك ووجهها كوجه البوم (ومنها) سمكة طولها نحو عشرين ذراعا ومن ظهرها الذيل الجيد وهي تلد كالآدمية وترضع مثلها (ومنها) سمكة تصاد وتجفف فيبقى لحمها مثل القطن يتخذ منه غزل وينسج منه ثياب فاخرة تسمى تلك الثياب سمكين (ومنها) سمكة على خلقة البقر تلد وترضع كالبقر وسمكة عريضة عرضها أميز من طولها يقال لها اليهازور يقارب وزنها قنطارا طيبة اللحم والطعم (وسمكة) طولها شبران ولها رأسان رأس في موضع رأس العادة ورأس موضع ذنبها وتسمى الخنجر (وسمك) يقال له الفرس وهو نوع من تحت كلاب الماء في البحر في فمه سبع صفوف أضراس وطوله عشرة أشبار وهو كثير الضرر والأذى .

وخلاصة القول أن العرب أخذوا عمن سبقهم وعن معاصريهم التراث الجغرافي الذي وقعوا عليه فنقلوه ولخصوه وشرحوه . ثم انتقلوا الى دور التصحيح والاضافة والابتكار ، فجودوا في هذه النواحي جميعها : في المجالات الرياضية والفلكية والبلدانية وفي الرحلات وكتب الكوزموغرافية . وكان لهذا كله أثر كبير في تطور الفكر العربي شأنه في ذلك شأن نواحي المعرفة الأخرى . وقد اتصل الأوروبيون في العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة بالعرب ، وتأثروا بالكثير الكثير من مآتيهم الحضارية والثقافية .

ونحن اذا أخذنا الأدب الجغرافي بشكل خاص وجدنا أن الأمر يدور حول النقاط التالية :

كان اهتمام الأوروبيين في العصور الوسطى منصرفا ، في الدرجة الأولى ، الى الموضوعات الرياضية والفلكية والطبية والفلسفية . ومن هنا كان اهتمام المترجمين بالناحية الرياضية والفلكية من البحوث الجغرافية . وهنا كان الأثر العربي الكبير .

لم يكن ثمة اهتمام جماعي بالادب العربي ، ولذلك فان الرحلات العربية (والفارسية) لم تنقل الى اللاتينية أو غيرها من اللغات التي ظهرت في أوروبا في عصر النهضة . أما ما وصل الى الأدب الأوروبي من موضوعات أدبية عربية الأصل فقد انتقل أكثرها بالاحتكاك والتعرف الشخصي ، لا عن طريق الترجمة .

لم يتعرف الأوروبيون الى الجغرافية البلدانية والمسالكية . فلم ينقل شيء من كتب الأصطخري أو ابن حوقل أو المقدسي ، أو من كتب الجغرافية الادارية والسياسية مثل مؤلفات القلقشندي أو العمري .

عرف الأوروبيون كتب الكوزموغرافية في مطلع العصور الحديثة فنقلوا منها الكثير ، ذلك لأنها كانت مما يحبه جمهرة القراء .

تأثرت أوروبا ببعض الخرط التي رسمها الجغرافيون العرب الأوائل وخرط الأدريسي . لكن لأنهم لم يعرفوا كتب البلدانيين فلم يتأثروا بالخرط المرسومة فيها .

على أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر انصرف عشرات من العلماء والباحثين والمؤرخين الأوروبيين الى كتب الجغرافية الأخرى—البلدانية والمعجمية والرحلات وما اليها—وأخذوا أنفسهم بدرسها وترجمتها والافادة من المعلومات الكثيرة فيها

د. نقولا زيادة - بيروت

برنامج التدرّج في أرامكو

يَقول المَثل «العَمل المُتقَن لا بَديل لَه»، وإتقان العمل لا يَتمّ إلاّ من قِبل خبير، وَالخَبير لا يتوفّر إلاّ بعد تعليم وتَدْريب وَمُمارسَة للعَمل المطْلوب انجَازه.

والصّناعة الحَديثة تحتاج إلى الفنّيّين المَهرة وذوي الكَفاءَات وَالخبْرة في تَشغيل المعَامل والمصانع وَصيانة المُنشآت وَالمَرافق طبْقاً لتَصْميمات المُهَنْدسين في كلّ مجال من مجالات العَمل. وَمَا صناعة الزيْت إلاّ احْدى هذه الصّناعات المَرمُوقة التي تحتاج إلى الكَثير من الأيْدي الفَنيّة وَالمهارات المُتعدّدة.



الأستاذ يوسف صافي يشرح لهذا المتدرج اجزاء المحرك الكهربائي ويريه كيفية فكه وتركيبه.

ولقد أقامت أرامكو ، منذ بدأت أعمالها في المملكة ، مراكز وورش التدريب الصناعي في مختلف أماكن عملها لاتاحة فرص الدراسة والتدريب لموظفيها السعوديين . كما زودت هذه المراكز والورش بالمدرسين والمدربين ، وجهزتها بالمعدات والأدوات اللازمة .

وفي سبتمبر عام ١٩٧٠ ، بدأت أرامكو بتطبيق برنامج جديد يدعى « برنامج التدرج » بالاضافة الى البرامج التدريبية الأخرى التي لا تزال مستمرة .

وكلمة التدرج « Apprenticeship » في مفهومها العام ، هي أن يلتحق شاب بموسسة ما ، بعد الاتفاق مع صاحب العمل ، بقصد أن يتعلم الشاب خلال مدة محددة وبصورة أصولية مهنة أو حرفة متوفرة لدى تلك المؤسسة . وقد قامت أرامكو بقبول عدد من الشباب السعوديين ممن أكملوا المرحلة الدراسية الاعدادية — كحد أدنى — بقصد تدريبهم على مختلف الأعمال المتوفرة لديها ، كما خصصت لهم رواتب شهرية أثناء فترة تدربهم التي قد تستمر مدة ثلاثة أعوام .

تدريب المتدرجين

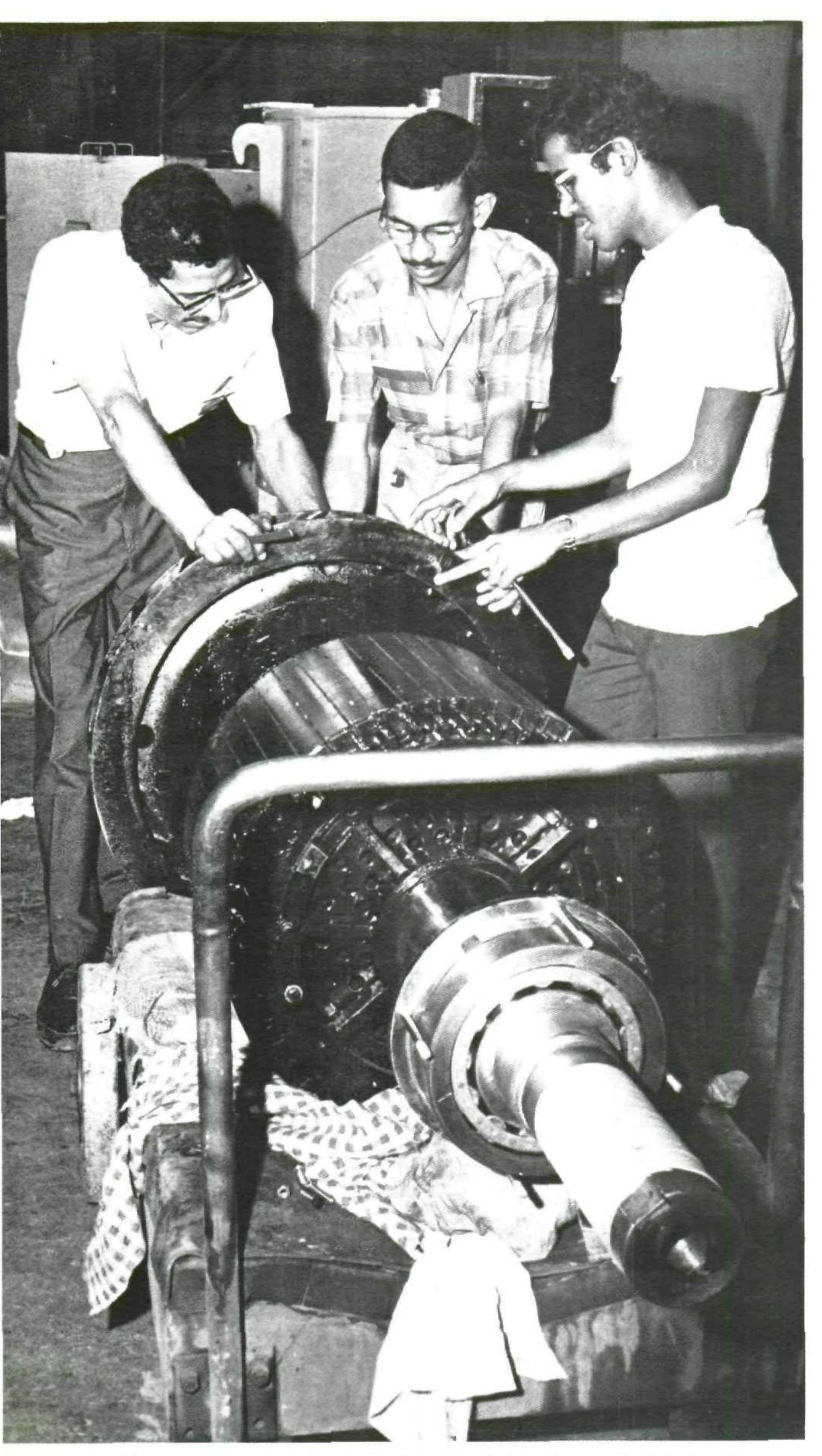
يشتمل برنامج التدرج على تعليم مدرسي وتدريب حرفي ، وقد أعد كل منهما ليحقق الغاية المرجوة من هذا البرنامج ، وهي تدريب المتدرج للقيام بعمله على الأوجه الأكمل .

ويحتوي التعليم المدرسي على مواضيع اللغة الانجليزية ، والرياضيات ، والعلوم ، العامة ، والضرب على الآلة الكاتبة . وقد تختلف هذه المقررات بين متدرج وآخر تبعا لنوع الحرفة أو العمل الذي يجري اعداده له .

أما التدريب الحرفي فيشمل تدريب المتدرجين على أعمال الكهرباء والخراطة ، وصيانة الآلات وأجهزة القياس ، ومبادىء الرسم الهندسي وقراءة الخرائط .

وبالاضافة الى التعليم النظري والتدريب الحرفي يتلقى المتدرج تدريبا تطبيقيا على الأعمال التي تتصل اتصالا مباشرا بنوع المهارة التي سيتخصص فيها. وقد يدرب أحيانا على أعمال أخرى لها علاقة بمجال تخصصه ، وذلك بغية استكمال تدربه بشكل أوفى وعلى نحو أعم ، وليكون لديه المام بما له علاقة بطبيعة عمله .

ويجري تنفيذ هذا البرنامج طبق أنظمة مدروسة تهدف برمتها الى تدريب المتدرجين على الوجه الأكمل . فالمتدرجون الذين يتدربون



في سبيل اعطاء المتدرجين الخبرة التطبيقية لما تعلموه في الفصول الدراسية يجري اخذهم الى الورش التابعة للشركة ، ويرى هنا فريق منهم يتفقد أحد المولدات الكهربائية .

برنامج التدرج في ارامكو





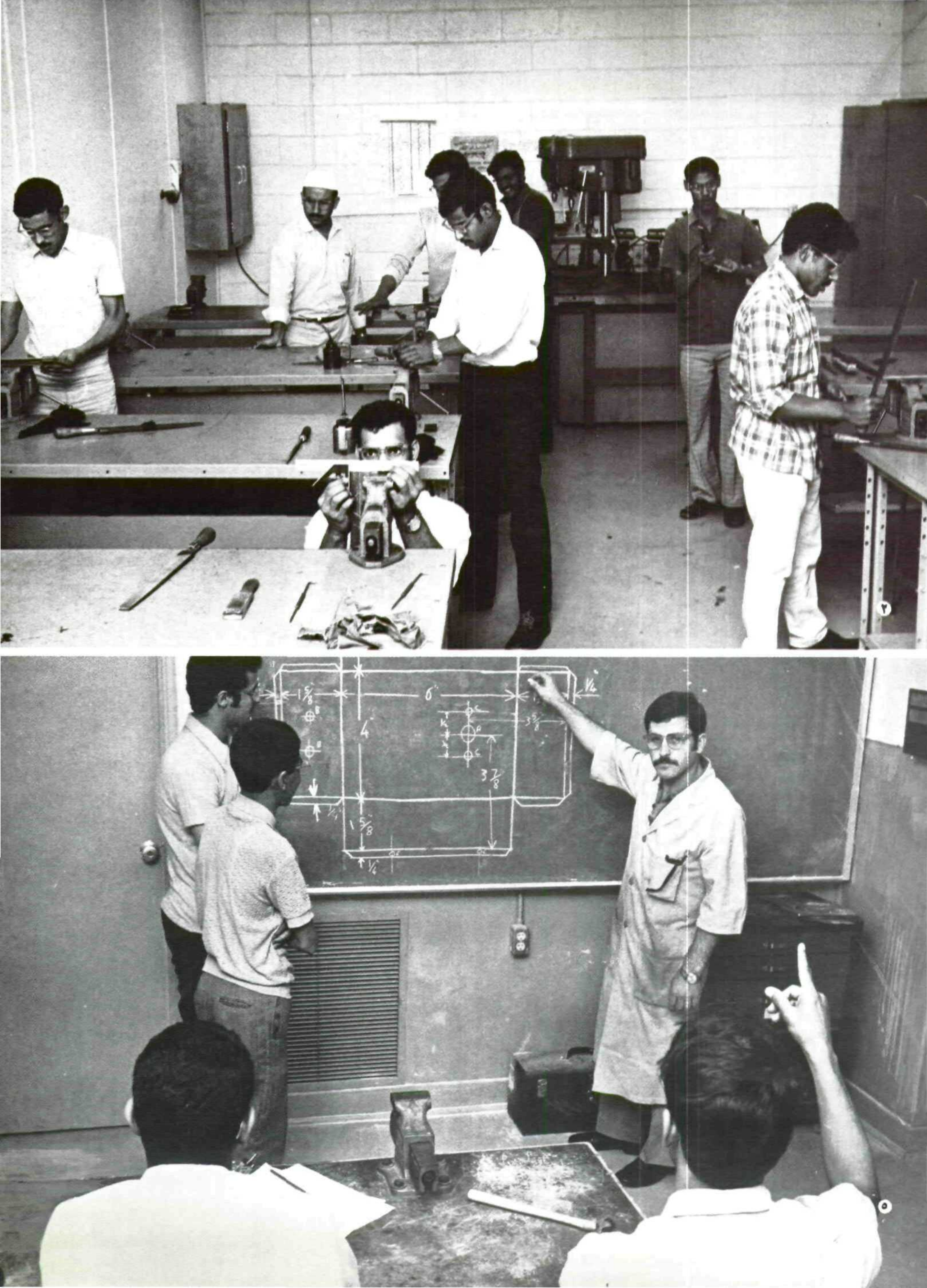
١ – بعض المتدرجين يتفقدون جهاز تعشيق التروس (Gear) في ورشة الميكانيكا التابعة لأرامكو ليطبقوا عمليا ما تعلموه في الفصول الدراسية .

٢ – يتطلب اجراء توصيلات الصفائح المعدنية بواسطة البراغي ، برادة هذه الصفائح وثقبها بحجم البرغي المراد ربطها به ، ثم عمل سنة داخلية في الصفائح تكون مطابقة لسنة البرغي .

٣ – الضرب على الآلة الكاتبة من المواضيع التي يشملها برنامج التدرج في أرامكو ..

٤ – تحديد الزوايا وضبط المقاييس الطولية خطوة اولية مهمة جدا في تنفيذ التصميم ، ويقوم بشرح ذلك لبعض المتدرجين الأستاذ زكي محمد نصر .

٥ – رسم يوضح طريقة عمل علبة من الصفائح المعدنية لتكون بمثابة فاحص للتوصيلات الكهربائية ، ويقوم الأستاذ يعقوب اسكندر نصر بتوضيح ذلك لبعض المتدرجين .


٢
1 5/8
6"
4
3 5/8
3 7/8
1 5/8
1/4
٥

برادة قطعتين من المعدن باليد حتى تنطبقا تماما بزاوية مقدارها ٩٠° بالضبط عمل دقيق جدا ، ويرى هنا الأستاذ « وورن ورت » وهو يفحص عملا قام به أحد المتدرجين .

فريق من المتدرجين يتلقى تدريبا في اللغة الانجليزية بواسطة هذا المعمل الحديث الذي زودت به أرامكو مراكز التدريب الصناعي لديها ..

على الأعمال المكتبية مثلا يقضون نصف نهارهم في مركز التدريب الصناعي حيث يتعلمون المقررات والمواضيع الخاصة بهم . ويقضون النصف الآخر في مختلف ادارات أرامكو [illegible]امها لكي يتدربوا عمليا على المهارات الت[illegible]ري اعدادهم لها . أما المتدرجون [illegible]لى أعمال الصيانة أو الأعمال [illegible] الزيت فيلتحقون عادة لمدة عامين [illegible] وورش التدريب الصناعي ، [illegible] الثالث في التدريب العملي باشراف [illegible] من المدربين والرؤساء . وخلال ذلك العام ، قد يتلقى المتدرجون تدريبا نظريا في أماكن العمل نفسها حيث يقوم بعض ذوي الكفاءة في الأقسام التي يتدرب فيها المتدرجون بشرح الأعمال والأشغال الفنية والحرفية المتعلقة بالمرافق والمعامل لمعرفة العطب أو الخلل وطريقة اصلاحه في أقصر مدة وعلى أكمل وجه .

وقد تتداخل فترات الدراسة والتدريب ، فيدرس المتدرج سنة ، ثم يتلقى التدريب العملي في السنة الثانية ليعاود الدراسة والتدرب في عامه الثالث ، وذلك وفق الجداول والترتيبات وإمكان توفير المكان المناسب للمتدرج حسب نوع المهارة التي يتدرب عليها .

والأعمال التي يتدرب المتدرجون عليها للقيام بها يمكن جمعها في أربعة أنواع رئيسية هي :

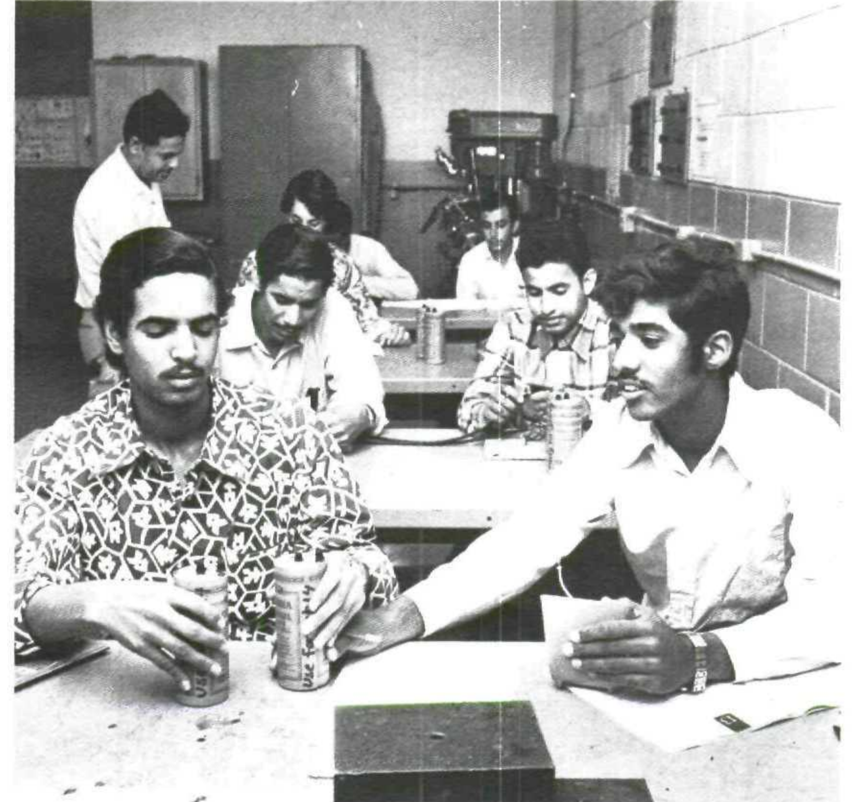
* **وظائف مشغلين في أعمال الزيت :** وهي خاصة بتشغيل مرافق التكرير والفرضة البحرية والانتاج والمعامل وخطوط الأنابيب .
* **وظائف حرفية :** وتختص بأعمال الصيانة والنقل وغيرها .
* **وظائف فنية :** وتختص بأعمال الهندسة على مختلف أنواعها وأعمال المختبرات .
* **وظائف كتابية :** وهي أعمال المحاسبة والأساليب الكتابية ، وخدمات المكاتب وأعمال المستودعات وخدمات السكن وما شاكلها .

وهذه الوظائف والأعمال تتصل اتصالا وثيقا بانتاج الزيت وصناعته أو بالصناعات والأعمال الأخرى التي لها علاقة بالزيت وانتاجه . واذا ألقينا نظرة شاملة على الصناعات التي تنشأ في مناطق انتاج الزيت وتصنيعه فاننا نجد أنها تكاد تكون متداخلة ، من قريب أو بعيد ، يعتمد بعضها على بعض ويكمل بعضها بعضا .

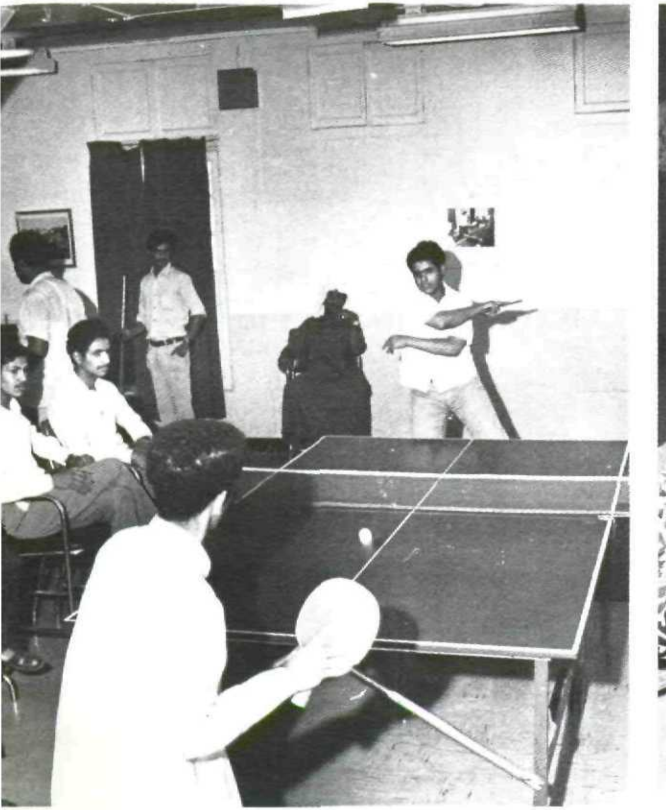
الملتحقون بالبرنامج

عندما بدأت أرامكو بتطبيق برنامج التدرج في عام ١٩٧٠ ، التحق به أكثر من مائة متدرج ، وفي نهاية عام ١٩٧١ بلغ عدد الملتحقين به حوالي **٣٥٠** متدرجا ، أما اليوم ففيه أكثر من ٧٥٠ متدرجا يتلقى معظمهم تدريبا نظريا وعمليا في مراكز التدريب الصناعي التابعة لأرامكو في كل من الظهران ورأس تنورة . كما أن هناك متدرجين يتلقون تدريبا عمليا في أماكن أخرى حسب نوع المهارات التي سيتخصصون فيها . هذا ويتوقع أن يصبح عدد الملتحقين بالبرنامج في نهاية العام الحالي حوالي **١٣٥٠** متدرجا .

ونظرا لهذا الاقبال المتزايد على التدرب والتوسعات الحالية والمرتقبة في صناعة الزيت خلال السنوات القليلة القادمة ، باشرت أرامكو ببناء مركزين جديدين للتدريب الصناعي أحدهما في المبرز بالاحساء ويستوعب مبدئيا **٢٠٠** متدرج ، والآخر في الدمام ، ويستوعب **٣٠٠** متدرج ، وستجري توسعتهما تبعا للحاجة في المستقبل . وسيشتمل كل من المركزين على فصول للتدريس وورش للتدريب مماثلة لتلك الفصول الموجودة حاليا في الظهران ورأس تنورة . وسيقوم بالعمل فيها عدد من ذوي الخبرة والكفاءة ، ويتوقع أن يبدأ التدريس فيهما في وقت لاحق من هذا العام .



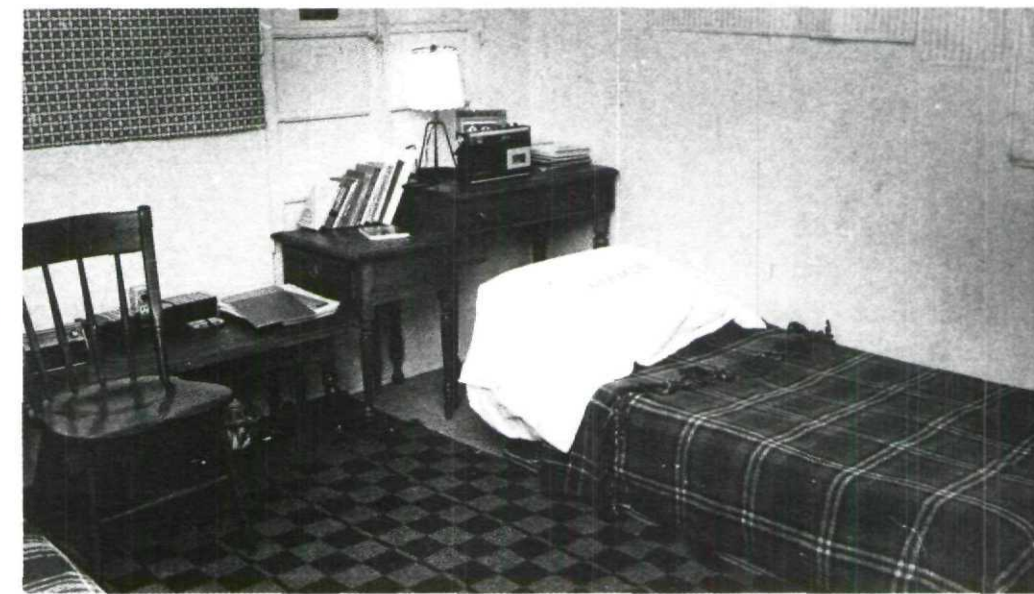
طائفة من المتدرجين يتلقون درسا أوليا في الكهرباء ، ويرى الأستاذ حلمي كيلاني وهو يشرح لهم كيفية عمل التوصيلات الكهربائية باستعمال البطاريات الجافة .



فريق من المتدرجين يقضون أوقات فراغهم في ممارسة لعبة كرة الطاولة في أحد مرافق الترفيه في أرامكو .



اللغة الانجليزية ، أحد المقررات الرئيسية التي يتلقاها المتدرجون في مراكز التدريب الصناعي التابعة لأرامكو .



احدى الغرف السكنية المكيفة بالهواء التي توفرها الشركة للمتدرجين ، ويسكن في كل واحدة من هذه الغرف متدرجان .

تصوير : عبد الله داغش

شروط الالتحاق بالبرنامج

يشترط في طالب الالتحاق ببرنامج التدرج أن يكون سعودي الجنسية ، ويتراوح عمره بين ١٦ و ٢٤ سنة ، وأن يكون قد أتم المرحلة الدراسية المتوسطة كحد أدنى . كما يشترط في الملتحق أن يجتاز بنجاح اختبارات القبول التي تجريها الشركة .

هذا ، ويوضع برنامج تدريبي لكل متدرج بعد أن يؤخذ بعين الاعتبار رغبته وتحصيله العلمي والعمل الذي سيجري اعداده له ، وحسب حاجة أرامكو من الدرايات المختلفة في الوقت الحاضر والمستقبل . كما يراعى لدى قبول المتدرج مكان اقامة عائلته وقربه من مركز وورشة التدريب الصناعي .

ومما يجدر ذكره أن المتدرج لا يلزم بالتوظف لدى أرامكو عند اكماله البرنامج . غير أن الشركة تنظر في أمر توظيف من يكملون البرنامج بنجاح اذا هم أرادوا الالتحاق بها . وقد توظف الشركة من تحتاج اليهم من المتدرجين قبل أن يكملوا مدة تدرجهم اذا هم اعربوا عن رغبتهم في ذلك . وقد قبلت الشركة حتى الآن حوالي ٣٥٠ متدرجا كموظفين لديها رغم أنهم لم يكملوا برنامج التدرج ..

المخصصات

يمنح المتدرجون مخصصات شهرية في مختلف مراحل التدرج . فالمتدرج الذي أنهى المرحلة الدراسية المتوسطة يتلقى حاليا ٥٢٢ ريالا في الشهر خلال السنة الأولى ، ويزداد هذا المخصص كلما أتم المتدرج سنة من التدرب بنجاح . أما المتدرجون الذين أتموا المرحلة الدراسية الثانوية فيمنح الواحد منهم ٧٠٧ ريالات في الشهر خلال السنة الأولى ويزداد هذا المخصص كلما أتم الواحد منهم سنة من التدرب بنجاح .

الإسكان والنقل

المتدرجون الذين تبعد مساكن اهلهم عن مراكز التدريب مسافة لا تمكنهم من السكن معهم ، يجري اسكانهم بناء على طلب منهم في أماكن سكن مكيفة مخصصة للموظفين العزاب ، وفي هذه الحالة يحسم من مخصصاتهم الشهرية بدل الحجرة المقرر والمشمول بالراتب .

أما من حيث النقل فيسمح للمتدرجين باستعمال وسائل النقل التي تقدمها الشركة لموظفيها يوميا وفي أيام العطل ، وتدفع لهم علاوات انتقال عندما تكون وسائل النقل هذه غير متيسرة .

الإجازات والعناية الطبية

يمنح المتدرج اجازة براتب مدتها ٢٨ يوما عن كل سنة كاملة يقضيها في التدرج . وتحدد الشركة مواعيد الاجازات بما يتفق وسير العمل في البرنامج .

كما تقدم الشركة للمتدرجين عناية طبية مجانية في المرافق التي تعينها .

التنظيم الإداري للمتدرجين

يتبع المتدرجون طوال مدة التحاقهم بهذا البرنامج لادارة التدريب التي تتولى مسؤولية الاشراف على شؤونهم وتوجيههم .

وادارة التدريب هي التي تعنى بتدريبهم وتأهيلهم . والمسؤولون فيها يبحثون مع المتدرجين المهن والحرف التي تناسب مؤهلاتهم وقدراتهم آخذين بعين الاعتبار ما يتفق وميولهم على ضوء احتياجات الشركة في المستقبل ، كما يقدمون لهم النصح والمشورة والمساعدة في كل ما يتعلق بتدريبهم وتعليمهم . ويبقى المتدرجون تحت رعاية ادارة التدريب الى ان يتركوا البرنامج أو يلتحقوا بالعمل كموظفين مداومين مع الشركة ■

ابراهيم أحمد الشنطي
من هيئة التحرير

الشعر العربي وافتنان الشعراء في أساليبه

للراحل الاستاذ محمود غنيم

كم يحز في النفس أن يُدْعى العربي – بله الأديب – منا الى مأدبة حافلة بألوان الطعام والشراب ، فينعم من الطعام بما أكل ، ومن الشراب بما علّ ونهل ، ثم هو اذا أراد أن يتحدث عن تلك المأدبة التوى عليه الحديث ، وتحيرت على شفتيه العبارات ، لانقطاع الصلة بين ما يريد ، وما وعى من أسماء ألوان الأطعمة المختلفة .

وكم يحز في النفس أن يرتاد الأديب العربي بستانا تختلف أشجاره ، وتتألق أزهاره ، فينعم بما رأى من جمال ، وما استاف من عبير ، ثم هو اذا أراد أن يعبر عما رأى لم يحضره الا أسماء لا تمت بصلة من الصلات اليه من نحو العرار والنسرين والريحان والأقحوان . ومثل هذا وذاك يقال عندما يشهد الأديب العربي حفلا موسيقيا (١) يثير وجدانه ، ويشنف آذانه ، فاذا أراد أن يتحدث عن الآلات الموسيقية ما وعى من العيدان والمزاهر والمثاني والمثالث .

ويزيد من أسفنا أن نقرأ في كتب الأدب مثلا أن أبا العلاء المعري عد للكلب سبعين اسما . وصدق أبو العلاء ، فان للكلب في العربية ، كما للأسد والفرس والبعير ، ما يناهز هذا العدد من الأسماء ، وهكذا نجد فيما مضى غنى فاحشا يقابله عندنا فقر مدقع ، فما سر هذا ؟ وعلى من تقع تبعته ؟ لا أريد أن أتعجل فألقي بتلك التبعة على عواتق مجامعنا اللغوية ، فنحن لا نشك في أنها استحدثت كثيرا ، وعربت كثيرا من أسماء تلك المسميات ، ولكن الذي لا نشك فيه أن كثيرا من هذا الانتاج لم ير النور ، بل يفتقر الى الظهور .

ولا أريد أن أطيل الكلام في هذا الموضوع الذي لا يبدو أن يكون مقدمة لما أريد الحديث عنه في شيء من الاسهاب . والذي أريد الحديث عنه هو ما ترمى به لغة الضاد من قصور ، ولا سيما في مجال الشعر بصفة خاصة : أعني تلك الغربة التي حدت بجماعة من أدعياء التجديد الى الثورة على أوزان الشعر العربي وقوافيه ، فأحلوه من الأولى ، وجردوه من الثانية بحجة أن هذه وتلك أطواق وقيود في أعناق الشعراء تحول بينهم وبين التعبير عن خلجات النفوس وشتى الأحاسيس ..

قد يكون صحيحا أن العرب القدامى وضعوا عشرات الأسماء لمسمى واحد ، وأغفلوا عشرات المسميات من اسم واحد ، وعذرهم في ذلك واضح ، فهم يعبرون عما يقع تحت حسهم ، ويدور في فلك حياتهم ، وليسوا – بطبيعة الحال – مكلفين أن يمدوا ما يتمخض عنه المستقبل بما يحتاج اليه من ألفاظ وتراكيب . ولكن هؤلاء القدامى – في لغة الشعر بصفة خاصة – لم تمنعهم قيوده وأوزانه أن يعبروا عن خلجات نفوسهم ، بل عن خلجات نفوسنا نحن ، وما نحس الحاجة الى التعبير عنه في عصر الذرة وارتياد الفضاء ، ولا أريد أن أثقل على القارىء ، فأسرد على مسامعه من حكم المتنبي والمعري وغيرهما من مئات الأبيات ما نتمثل به يوميا في مختلف الظروف والمناسبات مما لو نسب الى شاعر معاصر ما أنكره سامع ولا قارىء .

ولعلّ أول ما يلفت أنظارنا الى سعة الأفق في لغة الشعر العربي بناء القصيدة التي قد يناهز عدد أبياتها المائة على حرف روي واحد . وعلى حين تتعدد القافية في سائر اللغات بتعدد الأبيات . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نرى منهم من لا يقنع بذلك ، فيبني القصيدة على حرفين ، كما نرى في لزوميات أبي العلاء . ويطلق علماء البديع على ذلك اسم « لزوم ما لا يلزم » ومع ذلك فانك لا تكاد تجد أثرا للتكلف في لزوميات أبي العلاء يجعلها تفترق عن شعره في « سقط الزند » (٢) .

والمتتبع لتصرف قدامى الشعراء في أساليب

---

(١) يلاحظ أن كلمة « الموسيقى » نفسها كلمة يونانية ، وقد وردت فيما بين أيدينا من المعاجم بكسر القاف .

(٢) « سقط الزند » هو ديوان أبي العلاء الذي لم ينهج فيه نهج اللزوميات .

الشعر العربي لا يسعه الا أن يقف مشدوها أمام ترويض القوافي وتطويع الأوزان لما أرادوه من ألوان الافتنان . وما ظنك مثلا بقصيدة واحدة تقرأ على عدة أوجه ؟ كتلك القصيدة التي مطلعها :

يا خاطب الدنيا الدنية انها
شرك الردى وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت في يومها
أبكت غدا بعدا لها من دار
غاراتها ما تنقضي وأسيرها
لا يفتدى بجلائل الأخطار

فانك تستطيع أن تقرأ هذه الأبيات على النحو التالي

يا خاطب الدنيا الدنية
انها شرك الردى
دار متى ما أضحكت
في يومها أبكت غدا
غاراتها ما تنقضي
وأسيرها لا يفتدى

ثم ما ظنك بقصيدة تبلغ أبياتها عشرات ، مختوم كل بيت فيها بكلمة « الخال » وهي في كل بيت بمعنى خاص ؟ ويطلق علماء البديع على هذا اسم «الجناس الكامل» . أما تلك القصيدة فهي – على ما أذكر – لشاعر شامي اسمه بطرس كرامة ، وقد بدأها بقوله :

أمن خدها الوردي تيّمك الخال (٣)
فسح من الأجفان مد معك الخال (٤)؟
وأومض برق من محيا جمالها
لعينيك أم من ثغرها أومض الخال (٥)؟
مهاة بأني أفتديها ووالدي
وان لام عمي الطيب الأصل والخال (٦)

ثم ما ظنك بتلك الأبيات التي تقرأ طردا وعكسا ؟ وذلك كقول الشاعر :

مودته تدوم لكل هول
وهل كل مودته تدوم

انك تستطيع أن تقرأ هذا البيت من آخره كما تقرؤه من أوله ، والبيت من السلامة بحيث لا تحس فيه أثرا للتكلف . وللحريري في مقاماته ما يشهد له بالبراعة في هذا المضمار ، فقد أورد أبياتا يلتزم في كل كلمة من كلماتها حرفا بعينه كحرف السين أو الشين مثلا ، كما أورد أبياتا أخرى يلتزم فيها أن تكون كل حروفها من الحروف المعجمة ، وأبياتا يلتزم أن تكون كل حروفها من الحروف المهملة ، كقوله :

أعدو لحسادك حد السلاح
وأورد الآمل ورد السماح

وهو بيت – كما ترى – لا نكاد نحس أثر الصفة فيه . ومما يتصل بذلك ما شاع في عهد المماليك وصدر العصر الحديث من الشعر التاريخي ، أو الشعر الجملي ، ونعني به الأبيات التي اذا جمعت أرقام حروفها بحساب الجمل كان المجموع رقما معينا يدل على سنة معينة تؤرخ لزواج أو ميلاد أو وفاة. وللمرحوم حفني ناصف من ذلك الشيء الكثير ، قد عقد صاحب كتاب « الطراز الموشّى في صناعة الانشا » لهذا الباب فصلا مسهبا قعد فيه قواعده ، وضبط أصوله .

ومن أعجب ما اتفق لي قراءته من ذلك أبيات خمسة ، نظمها صاحبها على نحو معين ، وشفع كل بيت منها برقم خاص بحيث تصلح تسلية أدبية رياضية في مختلف الأندية الثقافية ، وذلك بأن يطلب أحد المنتدين الى آخر منهم أن يضمر في نفسه حرفا معينا ، ثم يعرض عليه تلك الأبيات ، مطالبا اياه بتعيين ما ورد فيه هذا الحرف من تلك الأبيات بيتا كان أو أكثر ، فاذا كشف المسئول عن ذلك عين له السائل على الفور ذلك الحرف المضمر . وذلك بحسبة رياضية يسيرة : هي أن رقم الحرف بين الحروف الأبجدية « أ ب ت ث .. الخ » يساوي رقم البيت الذي ورد فيه ، فان ورد الحرف في بيتين جمع رقماهما ، وان وقع في أكثر جمعت أرقام الأبيات التي ورد فيها ، وكان حاصل الجمع هو ترتيب الحرف بين الحروف الأبجدية ، كما سبقت الاشارة واليك بعض هذه الأبيات مشفوعة بأرقامها :

١ سيد الرسل صفا در الصفا
تاج نور ساطع نسل لؤي
٢ قمر لاح عظيم مشرق
حين لا ذنب تقيّ من قصي
٤ فهو غيث حيث يجري سقيه
وصلاح حيث يشفي جوف حي
٧ ورسول وملاذ مكرم
كنز در خصه مولاه شي

ولسنا ننكر أن تركيب هذه الأبيات – وهي تدور حول التصوف والتشيع – لا يخلو من تهافت ، ولكننا اذا أدخلنا في اعتبارنا هذا الأساس الرياضي الذي بنيت عليه كانت احدى الروائع اللغوية .

وما دمنا بصدد الحديث عن ضبط العلوم بالنظم فلن ننسى ما قدمه الشعر لنفسه من الخدمات. ونعني بذلك ما نظم في علم العروض بحوره وقوافيه وزحافاته وعلله وأسبابه وأوتاره . ومن عجيب ما اطلعت عليه في ذلك منظومة تنتظم كل بحر من البحار الستة عشر في بيتين مختومين بآية قرآنية ، على النحو الآتي :

« طويل » اسى العشاق من ألم الجوى
دعاؤهمو طيب الهوى ما نهى الناهي
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن
« وآخر دعواهم ان الحمد لله »

وما دمنا بصدد تصرف الشعراء في أساليب الشعر – أو النظم بعبارة أدق – فلن ننسى ما اتسعت له آفاقه من نظم القواعد العلمية نظماً ييسر للمتعلم استيعابها ، والاستشهاد به عند الاقتضاء . وقد لعب بحر الرجز في هذا المضمار دورا مرموقا بما اتسع له من أنواع الزحاف والعلل التي تجوز فيه دون غيره . والمتتبع لتاريخ المماليك يجد عصرهم حافلا من ذلك بما يتجاوز الحصر ، وليس أمر هذه العلوم المنظومة مقصورا على ألفيات القواعد النحوية التي تعد في مقدمتها الفية ابن مالك الأندلسي ، بل انها تتجاوز النحو الى غيره من سائر العلوم كعلم الكلام والفرائض والفلك وأحكام تجديد القرآن ، ووصف الأرض ، وغير ذلك مما يخطئه العد . وعلى ذكر وصف الأرض أذكر أنني قرأت لشوقي أرجوزة جغرافية بدأها بقوله :

أفريقيا قسم من الوجود
أشبه ما يكون بالعنقود

وبعد ، فاني أرجو ألا يفهم القارىء من مقالي هذا أنني من أنصار التكلف والافتعال ، أو أنني أحبذ ما قدمت من تلك الأفانين ، وأدعو الى النسج على منوالها . معاذ الله ، فانني أومن بقول أبي الطيب :

أبلغ ما يطلب النجاح به الطبـ
ـع وعند التعمق الزلل

وانما سقت هذا الحديث لغرض واحد : هو أن أبين لهؤلاء الذين يضيقون ذرعا بقوافي الشعر وأوزانه أن الشعر مجني عليه ، وان اتسعت آفاقها لما وراء أوزانه وقوافيه من ضروب الأفانين التي ألمعنا اليها ، وهي قليل من كثير ، فمن ضاق ذرعا بقيود الشعر فليلتمس العيب في موهبته هو ، وفي مقدرته الفنية ■

(٣) الشامة (٤) المطر (٥) البرق (٦) أخو الأم

قصة

طبول ...

بقلم جاذبية صدقي

الطبول تدق ، دقاً رتيباً .. متصلاً .. منتظماً !

دقاتها أخذت تهدر على قمم التلال والجبال فارتجفت أرجاء الغابة !

من كل صوب وحدب وزاوية .. من كل ركن من أركان الغابات ، جاء ذلك الهدير المنحدر .

صوت الطبول زاد حدة ، واصرارا ، وعنفا !

فتوقف « جادو » عن المضغ ، ورفع وجهه عن نصف ثمرة من « جوز الهند » يمسك بكلا شقيها ويشرب لبنها الحلو . توقف وهالة بيضاء عريضة مرسومة حول فمه ، وقطرات بيضاء لزجة تتساقط على صدره .. ووجهه الأسمر بعينيه البراقتين مترقب .. متحفز .. مرفوع الى فوق .. من حيث يأتي ذلك النذير !

هي لحظات تسمر فيها مكانه ، يستمع . ثم اندفع نحو شجرة عملاقة وأحاطها بذراعيه وساقيه . وفي خفة وسهولة .. وفي قفزات سريعة قصيرة شد بدنه خلفه وتسلق الشجرة الى أعلى أطرافها !

وأخذ يصغي بانتباه شديد الى دقات الطبول . ثم هز رأسه بشدة . لا ، لا ! ليس في الأمر فرح ، أو حفل في ضوء القمر . ثم لا ! لم يمت أحد .. ولا انتصر أحد على أسد .. لا — ليس في الأمر شيء من ذلك كله ! الطبول لغتها اليوم غريبة .. تبعث رعدة في الأوصال !

حك « جادو » شعره . لقد علمته أمه لغة الطبول . قالت له أمه انها رسائل تبعث بها قبيلة الى أخرى ، فتتبادلان الحديث والأخبار عبر الغابات .. وعبر السهول .. وعبر الصحاري ! من فوق رؤوس الأشجار تقول طبلة شيئا ، فتجيبها طبلة جارة بما تريد أن تعرفه : تنبئ بخبر .. أو تسأل سؤالا .. أو تدعو الى حفل .. أو تعلن حربا .. أو تستغيث وتستنجد بهمة الشجعان للدفاع عنها في محنة ! حتى ولادة الطفل لها دقات خاصة مدوية تجلجل ، فها هوذا رجل قد انضم الى جماعة المحاربين !

ولكن لا ! لا شيء من ذلك القبيل اليوم . لغة الطبول اليوم مختلفة جدا فهي مختلطة ومتشابكة ومضطربة : مزيج من دقات الحرب ، ودقات الفرح ، ودقات النصر ، ودقات ضوء القمر !

طبول تدوي دقاتها بلا انقطاع وبلا تردد وبلا توقف !

فابتسم الصبي . ابتسم في زهو ونفس صدره يملوءه هواء كثيرا . ورفع رأسه يشمخ به ويلوح بيد في ثقل ووقار وهو يتصور نفسه زعيم القبيلة الكبير ! ودقات الطبول هي تحية له !

فللحال عض « جادو » شفته التي كانت قبل لحظة تتراقص لأنه كان يبكي . وجفف دموعه بطول ذراعه . طبعا ، الزعيم الكبير لا يبكي أبدا ! اذن هو لن يبكي بعد اليوم ولن يغضب من أخته بعد اليوم ويهرب الى الغابة ويبكي كالطفل ! أجل ، كالطفل ! هكذا وصفته أخته ساخرة لأنه ارتمى في حضن جدته ، يخفي وجهه في صدرها من خوف ملأه من الظلام !

فسخرت منه أخته وأطلقت عليه تلك الصفة التي تثيره وتبكيه . وعندما شكاها لجدته الحبيبة الحنون التي كانت ذراعاها دائما ملجأه كلما خاف أو نام — جدته هذه زجرته بدورها وقالت له :

— « صدقت أختك — أتخاف ؟ أيخاف رجل عمره ثماني سنوات ؟ »

فأطلقت أخته ضحكة عالية وخزته كأنما داس على شوكة ! فانفجر باكيا وانطلق يجري الى قلب الغابة !

وفي الغابة ، بكى ما شاء له البكاء ، وتمرغ على الأرض ودق رأسه بقبضتيه ، وتقافز يدب بقدميه .. ينفث غليله ! ولكن عندما هدأ وتنبه للطبول تدق حوله وتدق .. قفز يلقي عنه طراوة الطفولة كأنها رداء قديم لم يعد صالحا . لقد ضحكت أخته منه مرة أخرى غير هذه ، وصاحت به كعادتها .

— « طفل يا « جادو » أنت — متى تكبر ؟ »

وقد صاح ذلك اليوم ودمه يغلي :

— « بل كبرت أنا — كبرت ! انظروا ! »

وقفز وسط لمة النسوة يستعرض بروزا في أعلى ذراعه . فزاد ضحك أخته منه . فاندفع تلك المرة أيضا الى قلب الغابة يصرخ ويبكي ويركل الهواء — يركله .. ويلكمه .. وينطحه !

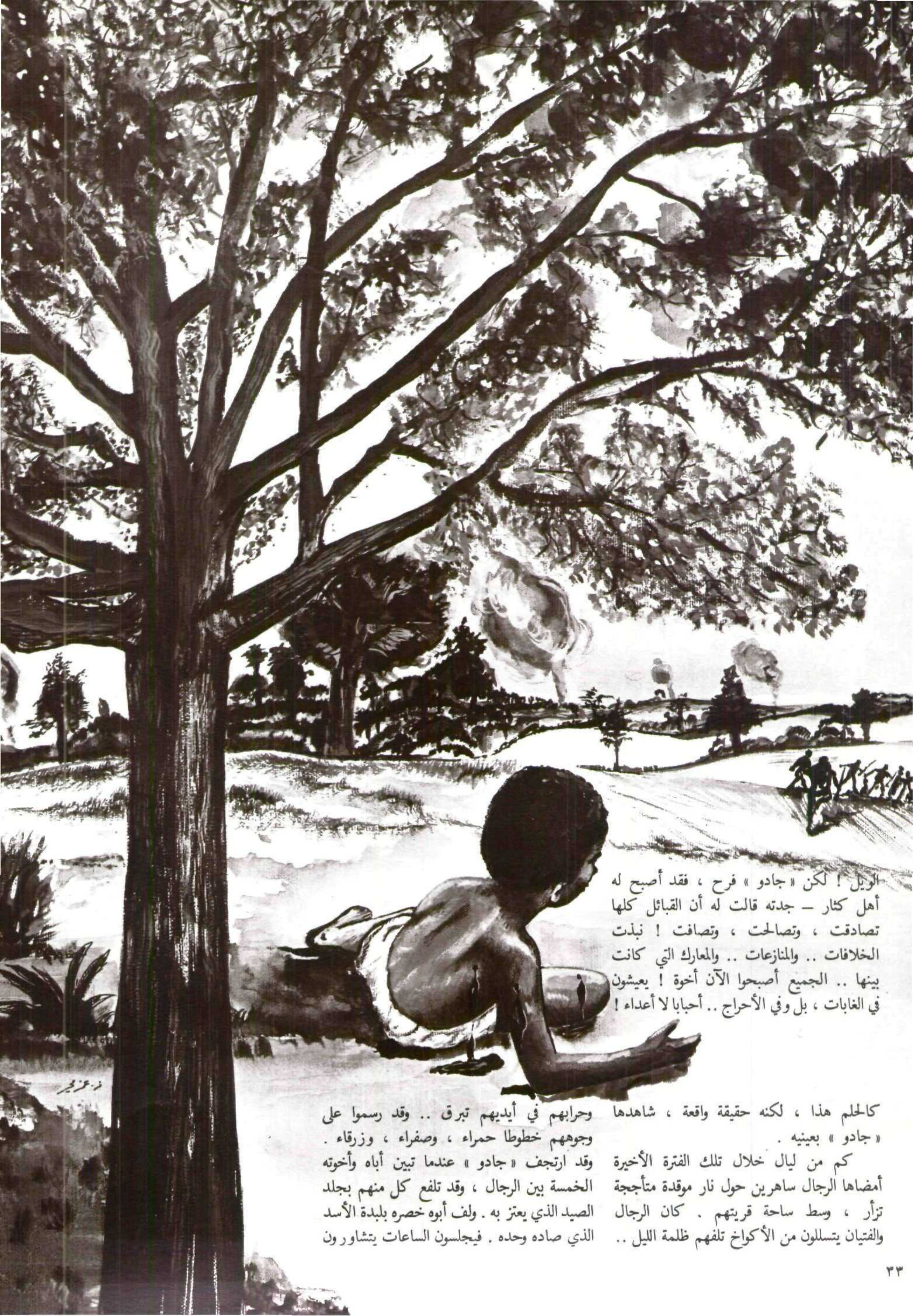
والطبول .. الطبول في الغابة تدوي . وتدوي ! .. وكأنها تهدر غاضبة ، وتقول له : لا يصح .. لا يصح !

أبدا ! لن يحدث ذلك منه أبدا بعد اليوم — أبدا !

اقسم « جادو » وهو يبسط قامته الى أقصى طولها . سوف يكبر .. ويكبر .. ويحمي بلاده .. ويحمي أهله .. ويحمي جيرانه كلهم . ويحمي قبيلته كلها من « الدخيل » ! ذلك « الدخيل » الذي يهدد بلاده .. وغاباته .. وقبيلته .. بل القبائل كلها ! « الدخيل » الذي حكت له عنه جدته قائلة :

— « ويلنا من ذلك الدخيل الذي أتى من بلاده البعيده ليستعبدنا ، لا ليعلمنا وينير عقولنا بمدنيته كما يدّعي ! هذا الدخيل لم يحل بنا ثقيلا وبلا دعوة منا فحسب ، بل هو يطاردنا .. ويطردنا .. ويدفعنا أمامه بعيدا بعيدا كلما توغل في غاباتنا .. ! والآن يريد أن ينتزع منا أراضي جدودنا .. وغاباتنا .. وأنهارنا .. وأشجارنا ! »

فشعر « جادو » بدمه في عروقه يغلي — من يجرؤ أن يفعل هذا كله به وبأهله ؟ الويل له —



الويل ! لكن « جادو » فرح ، فقد أصبح له أهل كثار – جدته قالت له أن القبائل كلها تصادقت ، وتصالحت ، وتصافت ! نبذت الخلافات .. والمنازعات .. والمعارك التي كانت بينها .. الجميع أصبحوا الآن أخوة ! يعيشون في الغابات ، بل وفي الأحراج .. أحبابا لا أعداء !

كالحلم هذا ، لكنه حقيقة واقعة ، شاهدها « جادو » بعينيه .

كم من ليال خلال تلك الفترة الأخيرة أمضاها الرجال ساهرين حول نار موقدة متأججة تزأر ، وسط ساحة قريتهم . كان الرجال والفتيان يتسللون من الأكواخ تلفهم ظلمة الليل .. وحرابهم في أيديهم تبرق .. وقد رسموا على وجوههم خطوطا حمراء ، وصفراء ، وزرقاء . وقد ارتجف « جادو » عندما تبين أباه وأخوته الخمسة بين الرجال ، وقد تلفع كل منهم بجلد الصيد الذي يعتز به . ولف أبوه خصره بلبدة الأسد الذي صاده وحده . فيجلسون الساعات يتشاورون

ويتشاورون ثم ينطلقون يرقصون ويرقصون ! يتقافزون ويرقصون .. يطلقون صرخات عالية مدوية .. يهزون رؤوسهم بعنف .. يلوحون بأذرعتهم الأبنوسية حاملة الحراب ، كأنما يهددون عدوا خفيا ويرقصون .. ! الليل ذاب في الرقص .. والأرض دمدمت بدبيب الأرجل في الرقص .. والسماء في صمت أطفأت قناديلها واحدا تلو الآخر ، والرقص العنيف تحتها لم يتوقف لا يتوقف !

وكانت جدته العجوز تضحك هانئة وتقول : «عشنا والله وشفنا هذا اليوم — يوم الحرب ! »

فتقافز الصبي ، وهو وحده في الغابة ، على أنغام الصوت الذي رضعه مع لبن أمه — صوت الطبول ، الطبول ! واقتلع عودا من شجرة صغيرة لم تقاومه كثيرا ورفعه عاليا يلوح به ! ثم اندفع يدب بقدميه راقصا رقصة الحرب هو أيضا ! وهو يلف ويدور حول نفسه !

وفجأة ، ارتمى على الأرض يلصق خده بها ، وأمسك أنفاسه يصغي وقع أقدام ! أجل ، وقع أقدام كثيرة مقبلة ! ما العمل ؟ أقدام لا حصر لها تدب بثقل كأنما هي لقطيع من الفيلة ، والقرية بعيدة ، وهو قد توغل في هروبه ، والطبول حوله تدق .. وتدق ..

اعمل « جادو » فكره بسرعة . وفجأة وثب من رقدته واندفع نحو أعلى شجرة أمامه تتطاول بعروشها فوق رؤوس الأشجار الأخرى . وأخذ يتسلقها حتى اذا أخفته أوراقها العريضة العليا ، ارتمى منهوك القوى ، ثم لف ذراعيه حول أول غصن لقيه من أغصانها ونظر الى أسفل ليرى ما يجري ويدور !

فرأى فرقة من الرجال قد تبلغ عددها المائتين أو أكثر وجوههم محتقنة ويحملون أسلحة رهيبة مصقولة . فاستراحوا تحت شجرته وجلسوا يتشاورون . فخاف « جادو » ولكنه اطمأن عندما لمح بينهم رجلا من عشيرته . رجلا طويلا عريضا ، يلتمع جلده وقد دهنه بزيت « جوز الهند » . ففرح « جادو » وكاد يهبط اليهم ، لولا أن سمع كلاما قاله ابن قومه هذا .

— كلام جعل قلب « جادو » الصغير يدق .. يدق ، في تجاوب مع طبول الغابة ! فمط عنقه بين أوراق الشجرة ، يصغي !

كان أحد هؤلاء الدخلاء يتحدث بلغة الغابة الى الرجل ابن الغابات . ثم ينقل كلامه الى زملائه وهكذا . ولم يلبث الرجل الدخيل أن أخرج من عبه كيس نقود كبيرا وهزه تحت أنف الرجل فجلجلت فضة كثيرة داخله . فهزه مرة أخرى وهو يسأله في اصرار :

— « قل ، قل : ما هي شارة البدء في الحرب ؟ هيه ، قل ، فتصبح هذه الفضة كلها لك ! ماذا اتفق عليه قومك ؟ قل ، وخذ الفضة ! »

فتردد الرجل لحظة ثم غمغم وهو يرمق الفضة بجشع :

— « نار ! نار عالية ! »

فانكمش « جادو » فوق غصن الشجرة التي يختبئ فوقها . وأغمض عينيه بقوة وفي استماتة كأنهما بابان يخشى أن يفر قلبه المذعور خلال باب منهما ! وصرت أسنانه — الخائن ، الخائن ! آه لو كانت معه مطواة جدته التي تذبح بها الدجاج ! آه لو كانت ..

هنا دوت في الجو قرقعة رهيبة ، تبعتها صرخة ملتاعة ! وعندما دفع « جادو » برأسه بين ورق الشجرة ، رأى الرجل الخائن منبطحا على وجهه غارقا في دمه !

وضحك الدخيل الذي قتله ، ورفع يده عاليا بكيس الفضة ثم دسه في عبه ، يعيده مكانه ثانية ، وقال :

— « غافل ! أيظن أننا نأمن له بعد الآن ؟ ! »

ولم يتردد « جادو » ، ولا هو تمهل . احتضن جذع الشجرة وفي خفة .. في دراية .. في قفزات سريعة شد بدنه خلفه وتسلق رأسها وخدشته الأغصان العليا الرفيعة الحادة .. وعطلته عن المضي في الصعود الى أعلى الشجرة .. خشخشت الأغصان ، وتشابكت ، وعاندته ، وقاومته ، وصارت تتقصف تحت ثقله وهو يصعد .. ويصعد .. لا يبطئ ولا يتوقف . لم يهتم بالخدوش التي أحدثتها بطول فخذيه ، وذراعيه ، وخديه ! ظل يصعد .. ويصعد .. ! حتى تمايل في خطورة وهو معلق كالعصفور على غصن رفيع . فبسط ساقيه وهو يلفهما حول الغصن الدقيق ، يوزع ثقله ، وترك يديه حرتين ، ومدها تحت حزام من جلد الغزال يلفه حول خصره ، أخرج « جادو » بضعة أعواد ثقاب ضمن أشياء أخرى يحتفظ بها هناك في حرص شديد كأنها كنوز ثمينة : كف تمساح .. حصى ملون .. قطعة مرآة ! وحك عود الثقاب الأول بجذع الشجرة ، فلمـا اشتعل ، تلاحقت ، أنفاسه وهو يقربه من الأغصان العليا الدقيقة التي لسعتها شمس الغابـات الحارقة وجففتها .

وعندما اشتعل رأس الشجرة وتراقصت ألسنة النار فوقها عاليا ، انثنى « جادو » على عود ثقاب آخر يشعله ، ثم آخر .. وآخر ..

فعلت صرخات الدخلاء الذين فوجئوا بالنار تزأر فوق رؤوسهم .

وعندما أطل « جادو » من مخبئه ، وجد عشرات البنادق مصوبة نحوه .. الى أعلى .. فوق الرؤوس !

وصادوه .

وهــوى .

وارتمى «جادو » أمام الدخلاء المتحلقين حوله ، ودمه ينزف في لون الورد ، زاه ، تتشربه الأرض .

وغمغم الصبي لنفسه بصوت خافت وعيناه مغمضتان :

— « لم أعد طفلا يا .... أختي ! »

وحاول أن يبتسم وهو يضيف :

— « أنا رجل ، ومحارب كبير الآن ، يا أختي ! »

وفجأة ، شقت الجو صرخة فزع أطلقها الدخلاء وارتعشت أقدامهم التي كانت هي كل ما يراه « جادو » منهم وهو ملقى على الأرض . اقدامهم هذه دب فيها اضطراب ، بل ذعر ، بل جنون .

فجاهد « جادو » وفتح جفنيه المثقلين ليرى سبب صراخ الدخلاء على أرض بلاده . وأطل طرف لسانه بين شفتيه ، يحاول أن يربطهما ولكن حلقه كان قد جف . فزحف ببدنه المهشم ودمه خط عريض متعرج مرسوم بضغط بدنه الصغير على التراب .

ثم استمات وغصب جفنيه غصبا كي ينفتحا ، وانفتحا .

وانشق وجه « جادو » عن ابتسامة عريضة هانئة مستبشرة ! وسها عن جفاف حلقه .. وعن آلام بدنه . وحتى عن دمه الذي يسيل ، وتسمرت عيناه هناك .. بعيدا .. فوق قمم الجبال العالية !

فقد رأى النيران تشتعل فوقها .. واحدة وراء الأخرى — شرقا .. وغربا .. وشمالا .. وجنوبا .. ! رأى ألسنة النيران تهب .. تطاول السماء كأنها عمالقة قد انتفضت غاضبة .. تزأر وتهدد ، وتتوعد !

لقد أثمرت اشارته ! أثمرت تضحيته ! فابتسم الصبي وتنهد في سعادة وأغمض عينيه بارتياح ورضا . ثم تدحرج رأسه على كتفه . وذهب .

... والطبول .. الطبول على حالها .. تدق ثائرة غاضبة ■

جاذبية صدقي — القاهرة

تعقيب

* لقد أسعدني وأنا أطالع عدد ربيع الثاني ١٣٩٣هـ (يونية ١٩٧٣) من مجلة « قافلة الزيت» ، بما فيه من بحوث مكتنزة ضمتها دفتاه ، أن أطلع على بحث بقلم الأستاذ عبد الهادي الفضلي ، تحت عنوان « في علم العروض .. نقد واقتراح » .

وللحق أنه بحث قيم ، قدم فيه صاحبه الجليل اقتراحات مهمة من شأنها تيسير دراسة العروض ، واختصار أو الغاء كثير من المصطلحات القديمة التي وضعها العلامة الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ولم تعد تتناسب والعصر الحديث الذي غدا كل شيء فيه يسير بسرعة تسبق الصوت .

بيد أن ثمة واحدا من تلك الاقتراحات كان يعوزه — فيما أظن — مزيد من انعام النظر ، وأعني بهذا الاقتراح ما أشار اليه الكاتب الفاضل من طلب الغاء نظام الأسباب والأوتاد والفواصل والاستعاضة عنه بنظام الحركة والسكون . فبدلا من القول أن (فعولن) مؤلفة من وتد مجمع وهو (فعو) وسبب خفيف وهو (لن) ، نقول أنها مؤلفة من متحركين فساكن فمتحرك فساكن .

ان اعتبار نظام التفعيلة قائما — مباشرة — على أساس الحركة والسكون في غيبة من تلك المصطلحات ، ليعتبر — بالفعل — تسهيلا وتيسيرا كبيرين . غير أن انعام النظر والتوسل في طلب مزيد من التيسير ليرشدنا الى اعتماد نظام أكثر بساطة ويسرا ، وخصوصا على المبتدئين من الدارسين .

والنظام الذي أعنيه هو أن نعتبر التفعيلة مبنية على أساس المقطع الطويل والمقطع القصير لا الحركة والسكون . ويمكن القول أن المقطع الطويل هو أي حرف تبعه مد أو سكون مثل (با ، بو ، بي ، بل ، كن ، هر) وأن المقطع القصير هي أي متحرك — سواء بالفتح أو الضم أو الكسر غير متبوع بمد أو سكون .

وعلى ضوء هذا النظام ، بدلا من القول أن (فعولن) تتألف من وتد مجموع ، وهو (فعو) وسبب خفيف وهو (لن) — على الطريقة الخليلية — وكذلك بدلا من القول أنها تتألف من متحركين فساكن فمتحرك فساكن — وفق اقتراح صاحب البحث — نقول بكل بساطة ان (فعولن) تتألف من مقطع قصير ومقطعين طويلين . ولو رمزنا للمقطع القصير بحلقة (٥) وللمقطع الطويل بشرطة (—) لكانت (فعولن) تقطع عروضيا هكذا (٥— —) .

ولقد تبنيت نظام المقاطع هذا في كتابي « مبادىء العروض » ، والذي طبعته ونشرته مكتبة الاستقلال في عمان ، الأردن في عامي ١٩٦٦ ، ١٩٧٢ ولاحظت استساغة الطلبة له ، وأدركت سهولته لدى التطبيق ، سواء بالنسبة لسرعة استيعابه من قبل الدارسين أو في الاقتصاد بالرموز عند التقطيع .

وختاما ، لست أرى في اقتراحي هذا ما ينقص من أهمية البحث القيم الذي حفزني الى كتابة هذه السطور ، وأن نقدي لا يقلل من كونه دراسة رائدة هادفة تستحق كل ثناء وتقدير ■

سميح أبو مغلي
كلية دار العلوم — القاهرة

---

* لقد اطلعت على مجلتكم الغراء « قافلة الزيت » ورأيت ما جاء بها في عددها الصادر في شهر ربيع الثاني ١٣٩٣ (مايو — يونية ١٩٧٣) كما رأيت ما نشر على غلاف العدد المذكور وعلى صفحاتها من ص — ٢٥ الى ص — ٣٤ ، التي شملت عددا من الصور التي تعكس جانبا من نشاطات الكشاف العربي السعودي والخدمات الجليلة التي يؤديها تجاه دينه ومليكه ووطنه .

ففي الصفحة الخامسة والعشرين من العدد نفسه وتحت عنوان « الحركة الكشفية في المملكة العربية السعودية وردت الفقرة التالية : «عرفت المملكة العربية السعودية النشاط الكشفي المنظم في عام ١٣٦٣ عندما تكونت الفرقة الكشفية الأولى في مدرسة تحضير البعثات الثانوية والمعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة وأنه على أثرها انتشرت الحركة الكشفية في بعض مناطق المملكة » .



وأظن أن كاتب المقال نسي أن أول فرقة كشفية ظهرت بالمملكة العربية السعودية هي فرقة كشافة المدرسة الصولتية في عام ١٣٦٢هـ حينما قامت بأول عرض كشفي لها أمام جلالة المغفور له الملك عبد العزيز وكان ذلك باذن من مدير المعارف آنذاك السيد طاهر الدباغ وبأمر من وزير الدفاع والطيران سمو الأمير منصور غفر الله له . وأكبر شاهد على ما أقول ، الصورة المنشورة على هذه الصفحة التي توضح بأن أول فرقة كشفية ظهرت بالمملكة هي تلك التي أسهمت في تأسيسها ، وقد شاركت الكشافة لباسهم تشجيعا لهم ، وأنا أبدو سادس شخص من اليمين في الصف الثاني من الأمام . وشكرا ■

عبد الله خوجة — مكة المكرمة

اخبار الكتب

* صدر الجزء الأول من ديوان الشاعر العراقي الراحل معروف الرصافي مشروحا بقلم صديقه وصفي عمره الأستاذ مصطفى علي عن مديرية الثقافة العامة بوزارة الأعلام العراقية .

وتصدر عن هذه المديرية نفسها المجموعة الكاملة لشعر الشاعر القروي رشيد سليم الخوري والأستاذ محمد مهدي الجواهري .

* أحدث دواوين الشاعر السعودي الكبير الأستاذ حسن عبد الله القرشي عنوانه « زحام الأشواق » وقد صدر عن دار المعارف .

* « مصرع غرناطة » هو موضوع المسرحية الشعرية الجديدة التي صدرت عن دار عويدات للشاعر السوري الكبير الأستاذ عدنان مردم بك ، وفيها صور الشاعر مأساة خروج العرب من اسبانيا والظروف التي مهدت لجلائهم . وتقع هذه المسرحية الشعرية في أربعة فصول ، وهي سادس مسرحية شعرية يصدرها مردم بك الذي يكاد يتفرغ الآن للمسرح الشعري ويعد من أبرز أعلامه .

* صدر باشراف وتحقيق الشاعر الكبير الأستاذ محمد مصطفى الماحي كتاب « مهرجان الشعر التاسع » وفيه سجل لما أنشده الشعراء في مهرجان الشعر في بغداد عام ١٩٦٩ . وحصيلته نحو مئة قصيدة . وللكتاب مقدمة بقلم الأستاذ الماحي وكلمتان للسيد عبد الله سلوم السامرائي والشاعر الكبير الراحل الأستاذ محمود غنيم . وصدر الكتاب عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

* من دواوين الشعر الجديدة التي صدرت مؤخرا ديوان « اني أرفض » للشاعر الأستاذ عبد الرحمن الخميسي وقد صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، وديوان « اللحمة الحية » للأستاذ صالح القرمادي وقد صدر عن الدار التونسية للنشر .

* من بين الدراسات الأدبية التي صدرت أخيرا هذه الطائفة كتاب ضخم في ثلاثة أجزاء عن « حب ابن أبي ربيعة » للدكتور جبرائيل جبور طبع بيروت ، و « نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع للهجرة » جمع وتبويب الدكتورين جميل سعيد وداود سالم وساعدت على نشره جامعة بغداد ، و « شخصيات من الأدب اليوناني المعاصر » للدكتور نعيم عطية ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، و « مسرح الدم والدموع : دراسة في الميلودراما العالمية والمصرية » للدكتور علي الراعي ونشر مطبوعات مجلة الجديد .

* تحت الطبع كتاب « جناية أحمد أمين على الأدب » للعلامة الراحل الدكتور زكي مبارك بتحقيق وتعليق الأستاذ حسين رشيد خريس .

* حقق الأستاذ فاروق سعد كتاب « طوق الحمامة في الألفة والألاف » لابن حزم الأندلسي ونشرته دار مكتبة الحياة ببيروت .ومما يذكر أنه سبق للشاعر الاستاذ حسن كامل الصيرفي أن حقق هذه المخطوطة ونشرها نشرا ممتازا .

* ومن كتب التراث التي صدرت أخيرا « ديوان ابن دهبل الجمحي » رواية أبي عمرو الشيباني وقد حققه الأستاذ عبد العظيم عبد المحسن وكتب مقدمته الأستاذ السيد زهير غازي زاهد وطبع في مطبعة القضاء بالنجف .

* صدر كتابان عن اعلام تونس هما « تراجم الأعلام » للعلامة الراحل الأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور وفيه ٢٨ ترجمة لمفكرين وأعلام ، وقد نشر عن الدار التونسية للنشر . وكذلك كتاب « الحلل الأندلسية في الأخبار التونسية » وقد صدر منه جزء أول في ثلاثة أقسام بقلم الدكتور محمد الحبيب الهيلة ، وهو من نشر الدار التونسية .

* ومن كتب السير والتراجم الجديدة « الفرزدق » للدكتور ممدوح حقي وقد صدر في سلسلة نوابغ الفكر العربي لدار المعارف ، و « الكميت » للدكتور محمد حاج حسين وقد صدر عن دار الأجيال بدمشق ، و « أندريه مالرو » وهو الفيلسوف الفرنسي المعاصر — وقد ترجم له وعرض آراءه الاستاذ فؤاد كامل وصدر عن دار المعارف .

* من الكتب الاسلامية الجديدة «الحج في الاسلام : كيفيته وأهدافه » للشيخ محمد الفقي بمقدمة لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ونشر مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ، والحلقة السابعة من مجموعة « سلسلة الثقافة الاسلامية » باشراف الأستاذ محمد عبد الله السمان ، و « في رحاب بيت الله الحرام ومناسك الحج » للأستاذ ممدوح محمد حسين ونشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، و « الله أحد » للأستاذ محمد عبد الرحمن عوض ونشر المجلس الأعلى .

* كتاب « العرب والهند في عهد الرسالة » للقاضي الهندي أطهر مباركيوري ترجمه الى العربية الأستاذ عبد العزيز عزت عبد الجليل ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* الأديب الشاعر الراحل علي أحمد باكثير صدرت له سبع مسرحيات اسلامية في كتاب واحد بعنوان « من فوق سبع سماوات » ونشرت في سلسلة « اقرأ » لدار المعارف .

* ومن الروايات التي صدرت أخيرا « على طريق الحياة » لسلون ولسن ترجمة الأديبة فردوس الشيخ ونشر دار الكتاب الجديد ، و « نصيبي من الأفق » رواية الأستاذ عبد القادر بن الشيخ ونشر الدار التونسية للنشر ، و « شاهد اثبات » لأجاتا كريستي وترجمة الأستاذ عمر عبد العزيز ونشر دار الكتاب الجديد .

وفي مجلد واحد صدرت ترجمة لمسرحيتي أنطون تشيخوف الموسومتين « شيطان الغابة » و « الخال فانيا » وقد قام بهذه الترجمة الأستاذ محمد حسن التيتي وراجعها الأستاذ حسن عبد المقصود حسن وصدرت عن وزارة الاعلام في الكويت .

* صدر الجزء الأول من الترجمة العربية لكتاب « الغصن الذهبي » لفريزر وقد أعدها الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد وصدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* « محاضرات في العلاقات الاقتصادية الدولية » عنوان كتاب للدكتور فوزي منصور صدر عن دار النهضة العربية .

* صدر للأستاذ محمود علي صالح كتاب طريف عنوانه « الماس : وصف وتقييم » ، وقد نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* يشرف الأديب الطبيب الدكتور سعيد عبده على سلسلة جديدة من الكتب الصحية تعرف « بمكتبة الصحة » وقد صدر أول كتاب فيها بعنوان « الدخان والتدخين » للدكتور عبد العزيز أحمد شرف وصدرت عن دار المعارف .

* أصدر المحامي الأستاذ عبد القادر عياش المتفرغ للدراسات الخاصة بتراث وادي الزور ووادي الفرات كتابا جديدا من كتب المأثورات عنوانه « حكايات من وادي الفرات » طبعته مطابع ألف باء/ الأديب بدمشق .

* هواة التصوير أصدر لهم الدكتور محمد مصطفى حماد كتاب « تكنولوجيا التصوير » وقد نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* « الطريق الى المدائن » عنوان كتاب جديد للأستاذ أحمد عادل كمال ، وقد صدر عن دار النفائس ببيروت .

* يتم تنسيق الموسوعة التي كان يعدها الأديب الراحل الأستاذ يعقوب العودات المكنى بالبدوي الملثم عن « أعلام الفكر والأدب في فلسطين » لتصدر تباعا بمقدمات لكل جزء من أجزائها

أعدها الأستاذ محمد عبد الغني حسن والأديبان الراحلان عادل الغضبان وسامي الكيالي وسواهم من أدباء الضاد .

* ومما يذكر أن للعلامة الأستاذ عجاج نويهض فصولا مسهبة عن أعلام الفكر في فلسطين يعمل على تنضيدها في كتاب متعدد الأجزاء .

* كما أن للأديب الفلسطيني الدكتور كامل السوافيري كتابا مخطوطا عن « الأدب العربي المعاصر في فلسطين » على نسق كتابي « الأدب العربي المعاصر في مصر » للدكتور شوقي ضيف ، و « الأدب العربي المعاصر في سورية » للأديب الراحل سامي الكيالي .

* كتابان من تجارب القضاء ظهرا أخيرا هما « الغفران الجديد » من تأليف الأستاذ محمد سيرجيّة رئيس محكمة استئناف حلب وطبع سورية ، و « من أخطاء القضاء » للأستاذ حسن الجداوي المحامي وقد صدر في سلسلة اقرأ لدار المعارف .

* من كتب التربية والفلسفة الحديثة صدرت هذه الطائفة : « التربية والتقدم » للدكتور سعد مرسي أحمد نشر عالم الكتب،و « الفلسفة الوضعية المنطقية في الميزان » للدكتور يحيي هويري ونشر مكتبة النهضة المصرية،و « المشاكل الفلسفية للعلوم النووية » لهايزنبرج وترجمة الأستاذ أحمد مستجير ومراجعة الأستاذ محمد عبد المقصود النادي ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* في المحاسبة الحديثة ظهر كتابان هما : « مقدمة الى علوم الكمبيوتر » للأستاذ عبد الرحمن بصيلة ونشر الهيئة العامة للكتاب ، و « الروابط الحديثة بين المحاسبة المالية والمحاسبة القومية» للأستاذ محمد رشاد محمود ونشر مكتبة الأنجلو المصرية .

* « أرمينيا في التاريخ العربي » دراسة مطولة طبعت في حلب للأستاذ أديب السيد .

* ترجم الأستاذ عبد الحميد عبد الغني كتاب جيمس آفري جويس الموسوم « قصة التعاون الدولي » ونشرته دار النهضة العربية .

* ظهر الجزء الثالث من كتاب « التطور في الفنون » لتوماس مونرو مترجما بأقلام الدكتور محمد علي أبو درة والأستاذين عبد العزيز توفيق جاويد ولويس اسكندر ومراجعا بقلم الأستاذ أحمد نجيب هاشم ، ومنشورا عن الهيئة العامة للكتاب.

* ومن مجموعات الأقاصيص التي صدرت أخيرا : « مطاردة نصف الليل » للأستاذ يوسف الشاروني وهي من منشورات سلسلة « اقرأ » لدار المعارف و « اللقاء » للأديبة نجوى قعوار فرح وقد نشرتها دار النهار ■

كُتُبٌ مُهْدَاة

حظيت مكتبة القافلة مؤخراً بالمؤلفات التالية :

* « العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك » للأستاذ علي بن حسين السليمان ، وهو مؤلف يبحث في عمق وتوسع العلاقات السياسية ، والدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، التي كانت قائمة بين مصر والحجاز في عصر سلاطين المماليك في القرن الثامن الهجري . وقد اختار المؤلف هذا البحث موضوعا لأطروحته التي نال بها درجة « الماجستير » في الآداب وقد صدر الكتاب بمقدمة للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب في جامعة القاهرة ، أشاد فيها بالجهد الذي بذله الأستاذ علي حسين السليمان في تأليف كتابه هذا .. والكتاب مزود بقائمة للمصادر والمراجع التي اعتمدها المؤلف بالاضافة الى فهارس بالأعلام والشعوب والأمم والفرق والقبائل والأماكن والمصطلحات الواردة فيه ، وهي مرتبة ترتيبا هجائيا . ويقع الكتاب في نحو ٣٠٠ صفحة من الحجم الكبير ، وقد نشرته الشركة المتحدة للنشر والتوزيع بالقاهرة ..

* « الباحث » وهي مجلة للأبحاث العامة تصدرها وزارة الثقافة والتعليم العالي والثانوي والأصلي بالرباط مرتين في السنة .. وتشمل هذه المجلة الفكرية مجموعة من الدراسات والأبحاث والأحاديث الفكرية والثقافية والتعليمية الرامية الى نشر الثقافة وترويج الفكر عن طريق البحث بالمنهاجية العلمية المطلوبة . وهي تقع في نحو ٤٢٠ صفحة من الورق الصقيل .. وقد تم طبعها في مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية بمدينة فاس في المغرب .

* « أمثال العوام في الأندلس » لأبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي (٦١٧-٦٩٤) ، وقد اضطلع بتحقيقه وشرحه ومقارنته الدكتور محمد بن شريفة .. ويتضمن هذا الكتاب ٢١٥٣ مثلا من الأمثال العامة المنسوبة الى عدد من الأعلام البارزين في الأندلس خلال القرن السابع الهجري .. وهو مزود بفهرس مرتب للأسماء والأعلام الواردة في الأمثال مع الشرح والاستدلال لكل منها . والكتاب من منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي ..

* « أصول التنظيم والأساليب » للأستاذ محمد شاكر عصفور ، خبير التنظيم والأساليب في معهد الادارة العامة بالرياض .. وهو مؤلف يعرض لنشاط التنظيم والأساليب ومسائل الادارة ، وللاجراءات العامة والخاصة المتعلقة بالتنظيم الاداري والأجهزة الادارية الجديدة والقائمة منها . ويشتمل الكتاب على اثني عشر فصلا يتناول المؤلف فيها التعريف بالتنظيم والأساليب ، والتطور التاريخي للتنظيم والأساليب في البلاد الغربية والعربية ، ومفهوم التنظيم الاداري والبحث التنظيمي ، والاجراءات وأهدافها وفوائدها وعيوبها ، وخرائط سير الاجراءات، وتبسيط الأعمال ، وخريطة توزيع الأعمال وكيفية اعدادها والأغراض التي تستخدم فيها ، كما يتناول أيضا مفهوم تصميم المكتب وأهداف دراسة تصميمه ومفهوم قياس العمل، والتطور التاريخي للآلات المكتبية ثم قواعد تصميم النماذج ومراقبتها وتوحيدها وعلاقتها بالاجراءات . ويقع الكتاب في ٢٥٣ صفحة من الورق الصقيل ، وقد تم طبعه في عمان بالأردن ..

* « الجزء الأول من « ديوان ذي الرمة » ، شرح الامام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي ، ورواية الامام أبي العباس ثعلب .. وقد حققه وقدم له الدكتور عبد القدوس أبو صالح .. وهو من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .. وقد تم طبعه في مطبعة طربين بدمشق ..

* العدد الأول من مجلة « مرآة العلوم » وهي نشرة سنوية تصدرها اللجنة الثقافية والفنية بكلية العلوم بالرياض ، ويشترك في تحرير مواضيعها العلمية والفنية والثقافية نخبة من الرابطة العامة لطلاب الكلية .. وقد طبعت بمطابع الرياض ..

* الجزء الأول من مختارات من « الشعر النبطي المعاصر » للأستاذ عاشق عيسى الهذال .. ويشتمل هذا الكتاب على مجموعة من قصائد الشعر النبطي المعاصر لنخبة من شعراء هذا اللون من القصيد ■

القرآن الكريم ورحلات الفضاء

بقلم الدكتور عبد المحسن صالح

سوف يبقى القرآن الكريم كتابا خالدا **« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »** .. مهما يتقول عليه المتقولون ، ويهاجمه الكارهون المضللون .. فبالحق قد جاء ، وبالهدى قد نزل ، ليكون دنيا ودينا ، يهدى به الله من يشاء .

نقول قولنا هذا بعد أن استغل بعض أعداء الاسلام والقرآن آية من آياته البينات ، واتهموها بما ليس فيها ، وشككوا في مضمونها ، نتيجة لبعض الانتصارات العلمية التي حققها الانسان في رحلاته الى الفضاء ، وقالوا فيما قالوا : ان كتاب المسلمين المقدس قد حاد عن جادة الصواب ، لأنه ذكر صراحة أن الانسان لا يمكن أن ينتصر في رحلته الى الفضاء ، ولا أن يصعد الى السماء !

ولقد كان دليلهم على ذلك في آية كريمة تقول : **« يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »** .. فأين هو الشواظ من النار والنحاس الذي وقف عائقا في سبيل رحلات رواد الفضاء الى القمر ؟ أو لم يذهبوا اليـه ويعودوا الى الأرض سالمين ؟ .. أو لا يعد هذا انتصارا مبينا في السفر الى الفضاء ؟.. لماذا يقول القرآن **« فلا تنتصران »** ، وقد انتصرنا ؟ .. الى آخر هذه الترهات والأباطيل التي يريدون بها التشكيك على غير بينة ولا هدى ، وكأنهم لا يأخذون منه الا ظاهر القول .

والغريب أن هذا الهجوم الساذج قد جاز على بعض الناس ، وتشكك البعض الآخر في امكان صعود الانسان الى القمر والهبوط على سطحه . اذ كيف يصعد الرواد الى القمر وهو قابع هناك مع النجوم في السماء ؟

والناس في حيرتهم معذورون الى حد ما ، لأن عيونهم لا تستطيع أن توضح لهم ما في السماء من عظائم الأمور ، ولو تجلت الحقيقة للعيون ، لوقف البشر خاشعين مبهورين من جلال ما يرقبون ، ومن روعة ما يشهدون .

واضح أن القمر في السماء ، كما تراه العين للوهلة الأولى ، وبجوار القمر نجوم حوله تنتشر ، ولكن لا يجب أن نحكم على الأشياء بالنظر ، فكثيرا ما تخدعنا أبصارنا فلا ترى الحقيقة كما يجب أن تكون .. اننا نرى الكواكب والنجوم معلقة في السماء على هيئة بقع ضوئية صغيرة ومزدحمة ، وما هي بصغيرة ولا مزدحمة ، ولا هي كذلك تنتشر بغير نظام ظاهر ، ولا هي واقفة ساكنة .. بل هي نظم سماوية هائلة ، فيها حركة وتناسق وضخامة ، **« وكل في فلك يسبحون »** .. ان القصور ليس فيها ، ولكنه كامن في عيوننا : **« الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير »** .

نعود اذن الى الذين قاموا برحلات الى الفضاء وصعدوا الى القمر ، والى الذين يتقولون على القرآن بما ليس فيه ، والى بعض العلماء الذين خرجوا بتصريحات لم تشف غليل الناس الذين ذهبوا اليهم يستوضحونهم الحقيقة فيما خرجت به بعض الصحف عليهم من فتنة تريد أن تنال من ايمانهم ،

ولقد زادت هذه التصريحات الأمور تعقيدا ، فقال بعضهم : ان القرآن ليس ضد العلم وليس ضد رحلات الفضاء ، بدليل قوله تعالى : **« فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان »** ولقد نفذ الانسان بسلطان العلم .. هكذا صرح العلماء باختصار ، ولكن .. ماذا عن تكملة الآية الكريمة **« يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »** ؟ .. هذا ما لم يتعرض له العلماء بالشرح والتحليل . وباجتهاد مني أقول أن الله عز وجل ربما عنى بقوله ذلك أن الانسان لن ينجح في ارتياد الفضاء مهما أوتي من علم وقدرات وامكانيات ، ولو تخطى حدوده لراح في خبر كان ، وعندئذ ستكون سفينته الفضائية بمثابة قبره وحده !

وقد يتساءل البعض هنا بدهشة : أو ليس هذا الكلام مناقضا للانجازات العلمية التي حققها الانسان في رحلاته الى الفضاء ؟

والجواب : هل نظن أن الانسان كلما صعد الى الفضاء وآب ، أو كلما ذهب الى القمر وعاد ، يعني أنه سوف ينتصر على الفضاء ، ويتجول فيه كما يشاء ؟ .. ثم أي فضاء هذا الذي نجح في غزوه الانسان ؟

لو أننا قرأنا قرآننا الكريم قراءة الباحث المدقق المتعمق في أصول الأشياء ، لوصلنا الى المغزى العميق الذي تنطوي عليه هذه الآية الكريمة ، وهذا لن يتجلى لنا الا اذا كنا ملمين ببعض الأسس العلمية التي أصبحت سمة ظاهرة من سمات عصرنا هذا .

ان الانسان الذي قام برحلاته الى الفضاء — كما يقولون — وصعد الى القمر وعاد ، ليس في واقع الأمر الا بمثابة طفل يحبو أمام عتبة الدار .. أو هو أقل ، وليس معنى أن الطفل قد حبا ، انه قد جاب الآفاق ، وطاف بالامصار .. وكذلك الحال مع الرواد الذين حطوا على القمر ، أو هؤلاء الذين يستعدون للسفر الى كوكب المريخ أو كوكب الزهرة أو كوكب زحل أو أي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية ، فليس معنى ذهابهم الى أي من هذه الكواكب أنهم قد ارتادوا الفضاء ، وتجولوا في أرجاء السماء !

ان المعنى العميق الكامن في الآية الكريمة يتركز في كلمة واحدة ، فيها فصل الخطاب ، تلك هي كلمة **« أقطار »** .

فما هي أقطار السماوات ؟ .. ما حدودها ؟ .. وماذا يعني الوصول الى القمر أو كل كواكب المجموعة الشمسية بالنسبة لها ؟ .. وما معنى الفضاء كما يراه العلم ؟ .. الى آخر هذه الأسئلة التي لا يزال العلماء فيها حائرين ، وفي مضمونها تائهين ..

القمر الذي وصل اليه الانسان لا شك أنه بعيد ، فهو يقع من أرضنا على مسافة ٢٤٠ ألف ميل ، وهي بمعايير مسافاتنا الأرضية كبيرة ، ولكنها بمعايير المسافات الكونية ليست شيئا مذكورا ، ولا في أقطار السماوات أمرا كبيرا . وحتى لا تتيه العقول في ضخامة هذا الفضاء العظيم ، دعنا نضع لذلك نموذجا مبسطا يقربنا من الحقيقة ، فنفترض أن كل مليون ميل من المسافات الكونية قد انكمشت لتصبح قدما واحدا .. عندئذ يصبح قمرنا على بعد ثلث شبر من الأرض ، أو بالتحديد سبعة سنتيمترات ونصف ، ثم يأتي كوكب الزهرة ليكون بمثابة الجار الذي يبعد عنا ٢٥ قدما ، والمريخ ٣٥ قدما ، وزحل ثلث ميل.. أي في الحي المجاور في الفضاء ، و « بلوتو » ، آخر كواكب المجموعة الشمسية وأبعدها عنا ، على بعد ثلثي ميل .. أي في الحي الذي بعده ، ثم علينا أن نسرع الخطى ، لأن المشوار بعد ذلك طويل ، ولأننا لن نجد الا النجوم ، أقربها الينا — على نموذجنا المصغر — يبعد عنا خمسة آلاف ميل ! وهي في الواقع على مسافة ٢٦ مليون مليون ميل ! ! .. أي أبعد من المسافة التي تفصل بيننا وبين القمر بأكثر من بليون مرة !

وقد أخذت هذه السنتيمترات السبعة أو الثمانية — على نموذجنا المصغر — من المال والجهد والوقت والعرق والتطور في المعدات والأجهزة الى غير ذلك الشيء الكثير جدا . فالصاروخ الذي استخدم في ارسال الرواد الى القمر بلغ (١٠٨) أمتار طولا ، و ٣٠٠ طن وزنا ، ولقد دفعت هذه الكتلة الجبارة خمس نفاثات ضخمة .. كل نفاث فيها كان يستهلك من الوقود قدر ما تستهلكه ألف سيارة وهي تنطلق بأقصى سرعتها ، ولقد حرق الصاروخ حوالي ألفي طن من الوقود في المرحلة الأولى التي لم تستغرق أكثر من دقيقتين ونصف .

لقد ذكرنا هذه النبذة القصيرة عن ضخامة صاروخ القمر ، ليتبين لنا أن الأمور ليست سهلة ميسورة لكي نتخطى هذه السنتيمترات الثمانية .. ولكي نخطو الخطوات التالية الى جارنا المريخ أو الزهرة فلا بد من توفر امكانيات أكبر ، وجهود أعظم ، وطاقات أضخم ، وعلم أعمق .

لنقارن الآن — باختصار شديد — امكانيات الرحلات الى الكواكب ، ثم نعرج بعدها على النجوم .

ان الوصول الى القمر والرجوع منه الى كوكبنا بسلام لا يستغرق الا أياما تعد على أصابع اليد الواحدة ، في حين أن المريخ — أقرب الكواكب الينا بعد كوكب الزهرة — يحتاج الى ستة شهور ذهابا ، وأكثر قليلا في العودة (حوالي ٢٠٠ يوم) أي أن الرحلة اليه تستغرق أكثر من عام ، ولهذا فان سفينة المريخ الفضائية ستكون أضخم حجما ، وأكثر اتساعا ، وأثقل وزنا ، وهي بذلك تحتاج الى قوة دافعة أكبر ، ولا بد أن يتوصل الانسان الى تشييد ترسانة فضائية تدور حول الأرض ، لتقوم بتزويد السفن المتجهة الى الكواكب بالوقود والمعدات وما شابه ذلك ، ثم تستقبل الرواد العائدين ، وتعيدهم الى الأرض .

هذا عن المريخ ، أو ذاك الجار الذي يبعد عن كوكبنا ٣٥ قدماً على نموذجنا ، أو ٣٥ مليونا من الأميال في الواقع ، ولكي يصل الانسان الى الكواكب الأخرى الأبعد مدى ، فلا بد من استعدادات أضخم وأعظم ، والواقع أن خطط رحلات كواكب المجموعة الشمسية محسوبة ومقدرة من الآن ، وهي ما زالت حبرا على ورق ، فآخر كوكب من كواكب المجموعة الشمسية يبعد عنا حوالي ٣٧٠٠ مليون ميل ، ولكي يصل الانسان الى هذا الكوكب وهو ينطلق

نحوه بسرعة ٣٨ ألف ميل في الساعة (بالمقارنة الى ٢٥ ألف ميل في الساعة الى القمر) فانه سيصل اليه بعد ٤٧ عاما ، ومثلها وزيادة في العودة !

هذا اذن عن عامل **الزمن** ، ودعك من ضخامة سفينة الفضاء وما ستحمل في جوفها من رواد كثيرين مجهزين بكل ما يحتاجون اليه في رحلة تستغرق قرنا من الزمان ، ودعك أيضا من هذا التيه الفضائي الذي فيه يعيشون ، والعزلة عن العوالم الأخرى ، ودعك أيضا من المفاجآت والأخطار غير المتوقعة ، ودعك من أن أي خطأ – حتى ولو كان طفيفا – قد يؤدي الى كارثة .. فلو أن سفينة الفضاء قد زادت سرعتها مقدار قدم واحدة عن المعدل المحدد لها وهو ٢٥ ألف قدم في الثانية ، فان هذه السفينة المتجهة الى القمر مثلا ستبعد عن هدفها بمائة ميل ، وعن المريخ بعشرين ألف ميل ، وعن الكواكب الأخرى الأبعد مدى بمئات الألوف من الأميال !

أضف الى ذلك أن سفن الفضاء تتجه الى أجرام سماوية ليست ثابتة في مكانها ، بل هي في حركة دائمة وسريعة .. ثم أنها في رحلتها تتعرض لقوى رهيبة قد تؤثر في مسارها .. فالشمس تجذب ، والكواكب تجذب ، والأقمار تجذب ، ولا بد أن يكون كل هذا مدروسا بدقة تامة .. وبالاختصار فهناك آلاف المشاكل التي تتطلب حلا وتخطيطا قبل أن يقدم الانسان على السفر الى الكواكب البعيدة المدى . وهذا– ولا شك–سوف يستنزف من عمره أجيالا ..

قد يتجول الانسان في المستقبل بين كواكب عائلته الشمسية التي تفصلها عن بعضها عشرات ومئات وآلاف الملايين من الأميال ، ولكن ليس معنى ذلك أنه قد جاب أقطار السماوات ، أو غزا نهاية المحيط الفضائي ، الذي لا يعلم مدى اتساعه الا الله سبحانه وتعالى ، فأقطار السماوات التي يتحدث عنها القرآن الكريم شيء ، والتجول في المجموعة الشمسية شيء آخر . لأن من يتجول في فضائنا المحلي الذي تسكنه كواكبنا ضمن مجموعتنا الشمسية ، كمن يتجول في دروب مدينة صغيرة ..

ولكن ماذا بعد كواكب المجموعة الشمسية ؟ .. وهل يستطيع الانسان أن يذهب الى أجرام سماوية أبعد مدى ؟ .. أعني هل يمكن أن يتجول في نسبة ضئيلة من أبعاد هذه الأقطار .. أقطار السماوات ؟

ليس أمامنا في الواقع بعد كواكبنا الا النجوم ، وأن أقرب نجم الينا – بعد شمسنا– يبعد عنا بمقدار أربع سنوات وثلث سنة ضوئية .. علما بأن السنة الضوئية تساوي حوالي ٦ مليون مليون ميل !

هذا عن أقرب نجم ، وماذا عن أبعد نجم ؟

لنكن أكثر تحديدا فنقول : أي نجم نقصد؟ .. هل نعني به ذلك الذي يعيش معنا في « جزيرتنا » الكونية ، أو ذلك الذي يقطن « الجزر » الأخرى التي تنتشر في المحيط الفضائي الهائل ؟ .. ثم ماذا نعني بالجزيرة الفضائية التي يريد الانسان أن يصل الى نجومها ؟

الفضاء بمثابة محيط واسع ، لا تحده الأبصار ، ولا تحده كذلك المراصد الفلكية التي ترصد بعدساتها بعض هذه الأكوان التي تمتد حولنا لآلاف الملايين من السنوات الضوئية ، ولا يستوعبه صاحب أعظم خيال . فلعقولنا حدود ، كما لعيوننا وحواسنا الأخرى حدود لا تستطيع أن تتعداها . ومع ذلك دعنا نتعرض لجزيرة صغيرة ، والوصف هنا نسبي ، من ملايين الجزر التي تنتشر في هذا المحيط الفضائي الهائل .. ولتكن هذه الجزيرة هي مجرتنا ، لأن المجرة مجموعة أو نظام مستقل من النجوم ، كما كانت شمسنا وكواكبها نظاما آخر مستقلا عن باقي النجوم أو الشموس التي تسكن معها في مجرتنا .

لقد قدر العلماء أن مجرتنا تحتوي على ما بين مائة ألف مليون ومائتي ألف مليون نجم أو شمس .. وهذا يعني أنها مكدسة بعدد هائل جدا من النجوم ، تراها عيوننا متقاربة لا يفصل بينها الا عدة أشبار أو عدة أمتار ، ومع ذلك فان الذين قاموا برصدها يقولون : ان كل نجم أو شمس يبعد عن جاره ملايين الملايين من الأميال . بيننا وبين أقرب نجم – كما ذكرنا – ٣و٤ سنة ضوئية ، والذي بعده يقع منا على مسافة ٦,١ سنة ضوئية ، والذي بعده على مسافة ٨,٧ سنة ضوئية . وهكذا تقدر المسافات بين النجوم بالسنوات الضوئية ، في حين أننا « نحبو » بصواريخنا بين كواكب المجموعة الشمسية التي تقدر مسافاتها بالدقائق والساعات .. فبيننا وبين الشمس مسافة ٨,٣ دقيقة ضوئية (أي حوالي ٩٣ مليون ميل) ، ويفصلنا عن المريخ ثلاث دقائق ضوئية ، وعن « بلوتو » أبعد كوكب في المجموعة الشمسية خمس ساعات وثلث ساعة ضوئية .. أما القمر فيبعد عنا ثانية وثلث ثانية ضوئية.. قارن هذا بأربع سنوات وثلث سنة ضوئية التي تفصلنا عن أقرب نجم الينا بعد الشمس !

وماذا اذن عن أبعد نجم ؟

نقصد طبعا أبعد نجم في مجرتنا ، ولا شأن لنا بنجوم المجرات الأخرى التي تبعد عنا آلاف الملايين من السنوات الضوئية !

إن قطر مجرتنا يبلغ نحو مائة ألف سنة ضوئية ، وسمكها نحو عشرة آلاف سنة ضوئية .. فلو قارنا قطر المجرة بقطر المجموعة الشمسية الذي لا يزيد على ١١ ساعة ضوئية ، أدركنا كم هي ضئيلة أقطار الفراغات التي تدور فيها كواكبنا مع شمسها بالنسبة لمجرة قطرها مائة ألف سنة ضوئية ، ودعك أيضا من مقارنة ذلك بقطر مدار القمر حول أرضنا الذي لا يتجاوز ثلاث ثوان ضوئية لا غير ، وبها ظننا أن الانسان قد غزا الفضاء ، وجاب أقطار السماء !!

لقد بدأنا نستنشق « عبير » الأقطار .. أقطار السماوات التي وردت في الآية الكريمة ، فاذا كان قطر مجرتنا التي نسكن في جزء جد ضئيل من تكوينها والذي يبلغ مائة ألف سنة ضوئية (حوالي ٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل) .. فما بالنا بأقطار السماوات التي لا يعلم مداها الا الله عز وجل .

وأيا كانت الأرقام ، فلا شك أنها لا تعني شيئا بالنسبة لعقولنا القاصرة عن استيعاب هذا الخضم الهائل من الفضاء الذي تنتشر فيه ملايين الملايين من الجزر أو المجرات .. كل

مجرة معزولة عن الأخرى بملايين السنوات الضوئية .. وهكذا لا بد أن نتخبط في عظمة الأرقام التي ينعكس مغزاها على عظمة السماوات وما حوت .

ولكن دعنا نقول أن الانسان قد يصل الى نجوم مجرتنا بعد أن يتعدى كواكب المجموعة الشمسية .. ولكي يصلها فانه لن يعتمد بطبيعة الحال على سرعة الصواريخ التي تنطلق الى القمر أو الكواكب السيارة ، فهذه صواريخ لن تنفع في أداء مثل هذه المهمة . وهناك صواريخ قيد التطوير تندفع بالطاقة النووية أو الكهربية أو البلازما . وأكبر قوة دافعة قدرها العلماء لمثل هذه الصواريخ الجبارة الحديثة ستصل الى ٢٠٠ ألف ميل في الساعة ، أي أنها تستطيع أن تقطع المسافة بين الأرض والقمر في ٧٢ دقيقة ، ولكنها تحتاج للوصول الى أقرب نجم في داخل حدود مجرتنا الى ١٥ ألف عام .

هذا عن أقرب نجم ، أما عن أبعد نجم يسكن في حافة مجرتنا أو جزيرتنا الكونية فلن يصل اليه صاروخنا الذي ينطلق بسرعة ٢٠٠ ألف ميل في الساعة الا بعد ٢٥٠ مليون عام ! !

ولنفترض جدلا أن السفينة قد صنعت وجهزت وانطلقت الى أقرب نجم في مجرتنا ، ولكن لسوء حظ روادها لم يجدوا حوله كواكب كالتي في مجموعتنا الشمسية ليهبطوا عليها (وهم لا يستطيعون أن يهبطوا على النجم ، والا لتحولوا الى غازات) عندئذ قد يتجهون الى النجم الذي بعده ، ولن يصلوا اليه الا بعد مرور ٧٠٠٠ عام أخرى ، والذي بعده بعد مرور ٨٠٠٠ عام تالية .. وهكذا ، وقد لا يجدون لهم في المجرة ملجأ اليه يلجأون ، وبه يلوذون ، فتكون سفينتهم هي قبرهم .

هل يعني هذا أن الانسان لن يترك مجموعته الشمسية الى النجوم الاخرى في مجرتنا ؟

لن نقفل الباب ، ودعنا أيضا نأمل ونتفاءل ونفترض جدلا أن الانسان قد يتوصل —بعد أجيال كثيرة— الى تطوير صواريخه لتنطلق بسرعة قريبة من سرعة الضوء ، حتى تسعفنا في غزو نجوم مجرتنا .. عندئذ ستقابلنا أمور ما كانت لتخطر لنا على بال .. فالسفينة الفضائية التي تنطلق بسرعة ٨٦٪ من سرعة الضوء (أي بسرعة ١٦٠ ألف ميل في الثانية الواحدة !) قد تصطدم رغما عنها بحبيبات دقيقة شاردة في الفضاء ، فلو أنها اصطدمت بحبيبة لا يزيد وزنها على جزء واحد من ألف جزء من ألف جزء من الجرام ، فان قوة الصدمة ستكون أعنف مما تتصوره عقول البشر ، وستؤدي الى تبخير عشرة أطنان من هيكل السفينة في التو واللحظة !

ودعنا أيضا نفترض أن السفينة التي تنطلق بهذه السرعة الخيالية لم تتقابل مع أية حبيبة أو شهاب ، رغم أننا لا نعرف ماذا يمكن أن تحويه هذه الفراغات الهائلة من أخطار ، الا أنها ستشق طريقها — رغماً عنها — في فراغ تنطلق فيه جسيمات ذرية شاردة هنا وهناك ، وسوف تستقبل على كل سنتيمتر مربع من سطحها عشرة آلاف مليون جسيم في كل لحظة ، وستكون الجسيمات — بالنسبة للسرعة الرهيبة — بمثابة رصاصات ذرية دقيقة وعنيفة ، فتفتك بهيكل السفينة من هول الصدمات ، فتحولها الى اشعاعات قاتلة كالتي تتواجد في جوف المفاعلات الذرية ، وربما كان هذا هو الجحيم والشواظ الرهيب الذي يعنيه الله بقوله **« يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »** ، وبه تصبح السفينة مقبرة لروادها .

أضف الى ذلك أن من العلماء من يحسب ويقدر بالمعادلات والأرقام قدرة الانسان على ارتياد الفضاء البعيد ، فتراهم يقولون : لكي نرسل سفينة فضائية تتجول بين نجوم مجرتنا — ولا شأن لنا بنجوم المجرات الأخرى التي تفصلنا عنها عشرات ومئآت وآلاف الملايين من السنوات الضوئية—فلا بد أن تكون هذه السفينة على هيئة مدينة منطلقة بسرعة قريبة من سرعة الضوء ، ولا بد أن تحتوي على كل ما يلزم سكانها من تموين ومهمات وأجهزة ومعدات .. الخ ، تكفيهم لعشرات الألوف من السنوات ، ولا بد أن يتناسلوا ويتكاثروا في هذه الرحلة الطويلة ولا بد أن يكون هناك متسع للجميع ، ولكي يكون ذلك ، فلا بد أن يكون وزن السفينة المسكونة مائة ألف طن على أقل تقدير ، ولكي ندفعها بهذه السرعة الرهيبة ، فانه يلزمنا بناء صواريخ مجهزة بأفضل أنواع الوقود — صلبا كان أو سائلا— ولهذا ستصل كتلة هذه الصواريخ الكونية الى حوالي ١٠٠٠٠ مليون مليون مليون طن ! .. وهكذا يحسب العلماء ويقدرون على الورق .. أما التنفيذ فشيء آخر مختلف تماما ، ويكفي أن تعلم أن كتلة الأرض التي نعيش عليها تبلغ ٦٠٠٠ مليون مليون مليون طن .. أي أن وزن الصواريخ بوقودها سيكون أكبر من وزن الأرض بمرة ونصف مرة ! .. وفي هذا الكفاية لقوم يفقهون !

أضف الى ذلك أن من يريد أن يتطوع للذهاب الى نجوم مجرتنا ، فعليه أن يعلم أنه لن يعود الى أرضه ، فليست هناك فرصة ولا أمل في العودة ، وقد يأتيه الحنين الى الاتصال « بأمه » الأرض ، وليس أمامه الا أن يبعث باشارات موجية تنطلق بسرعة الضوء ، ولكن أهل الأرض لن يستقبلوا اشارة رواد الفضاء الا بعد مئات وآلاف السنين ، وعندما يردون عليها لكي تصل اليهم ، فلن تصل الا بعد مرور هذا الزمن الطويل .. ولن يعرف أهل الأرض وقتها مكانهم ولا مصيرهم .. وقد تكون المجرة لحدهم ومثواهم الأخير !

هذه إذنْ حدودنا ، وهذه هي حدود مجرتنا أو جزيرتنا الكونية الصغيرة بالنسبة لأقطار السماوات التي لا نعرف لها بداية ولا نهاية .. لأن السماوات أعظم ، وأقطارها أوسع مما تتخيله العقول .

واذا أردت معرفة نهايتها ، فعليك أن تتعمق في مغزى هذه الآية الكريمة : **« يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »** صدق الله العظيم ■

د. عبد المحسن صالح — القاهرة



الأديب

للشاعر الياس قنصل

ماذا استفـدتُ مـن اليراع وقـد ذوى   في ظلـه عمري وكـان رطـيبـا ؟

قضّيـتُ أعـوامـي علـى جمر الغَضا   اتكبّـد الحـرمـانَ والتّعْـذيبـا

وسهـرتُ أمـنـح مـن كَبَتْ آمالُـه   أسمـى الحنـان مؤاسيـا وطبيبـا

ما جـدّ مثلي الـلابسـون لـفـوزهـم   ثوبـاً مـن الرغـد الطريـف قشيبـاً

لكنّهـم حصـدوا وكـان حصـادُهم   ممـا ابتغـوه ليّنـاً وخصيبـا

زلاتُهـم – مهمـا جنـوا – مغفـورة   لا تستحـق اللـومَ والتـأنيـبـا

أمـا أنـا فـمـزالقـي مـرصـودة   حتـى وإنْ هـانـت تعـدّ ذنوبـا

مهمـا ابتعـدتُ عـن العيـون تسـتّرا   ألفيـتُ حولـي مـن يحـوم رقيبـا

حظّي مـن الأيـام ان ألقـى العـنـا   أو أن أعـزّي التـاعسَ المـغلـوبـا

انـي منحتُ النـاسَ خيرَ مـواهـبـي   وتركتُ ذاتـي معـدمـاً منكـوبـا

فـي كـلِ سِفـرٍ دبّجتْـه يـراعتي   قلـبٌ يسيـل علـى الطـروس وجيـبا

لـم يكـفِ انـي كنتُ مغمزَ جـاهـلٍ   حقـر النهـى والعلمَ والتهـذيبـا

فظلمـتُ سعيـي بـالقنـاعـة والرضى   وجعلـتُ عيشي بـالكفـاف جديبـا

قـالـوا ستحـرز فـي البيـان مكانةً   تصلي قلوبَ الحـاسديـن لهيـبـا

فأجبـتُ مـا جـدوى الفخـار لبائسٍ   خـاض الحيـاةَ كـوارثـاً وخطوبـا

كالطفـل يلهـو بالحصى ويـظـنّـهـا   جيشـاً يكـرّ علـى العداة رهيبـا

انـي علـى نفسي جنيـتُ تعـمّـدا   وحملـتُ مـن عـبء الشعـور ضروبا

لكنـنـي رغـم الذي قـاسيْتُـه   متصبّـرا وعـرفْتُـه تـجـريبـا

لو قيل لـي كنْ ما تشاء علـى الثرى   مـا اخترتُ إلا أن أكـون أديـبـا

الياس قنصل – الارجنتين

صناعة شموع الإنارة



الشموع التي تشاهدها في المحلات التجارية، والتي تأسر ناظريك بألوانها الزاهية وأشكالها المتعددة، هي نتاج صناعة مزدهرة، يؤلف البترول العنصر الأساسي في صناعتها.

احدى العاملات في مصانع شموع الانارة تثبت خيوط الفتيل على الاطار الخشبي .

يدور الدولاب ومع كل دورة تنغمس الذبالات في الشمع الذائب.

تشكيل الشموع الخاصة يتم بصب الشمع المخفوق في قوالب متعددة الأشكال.

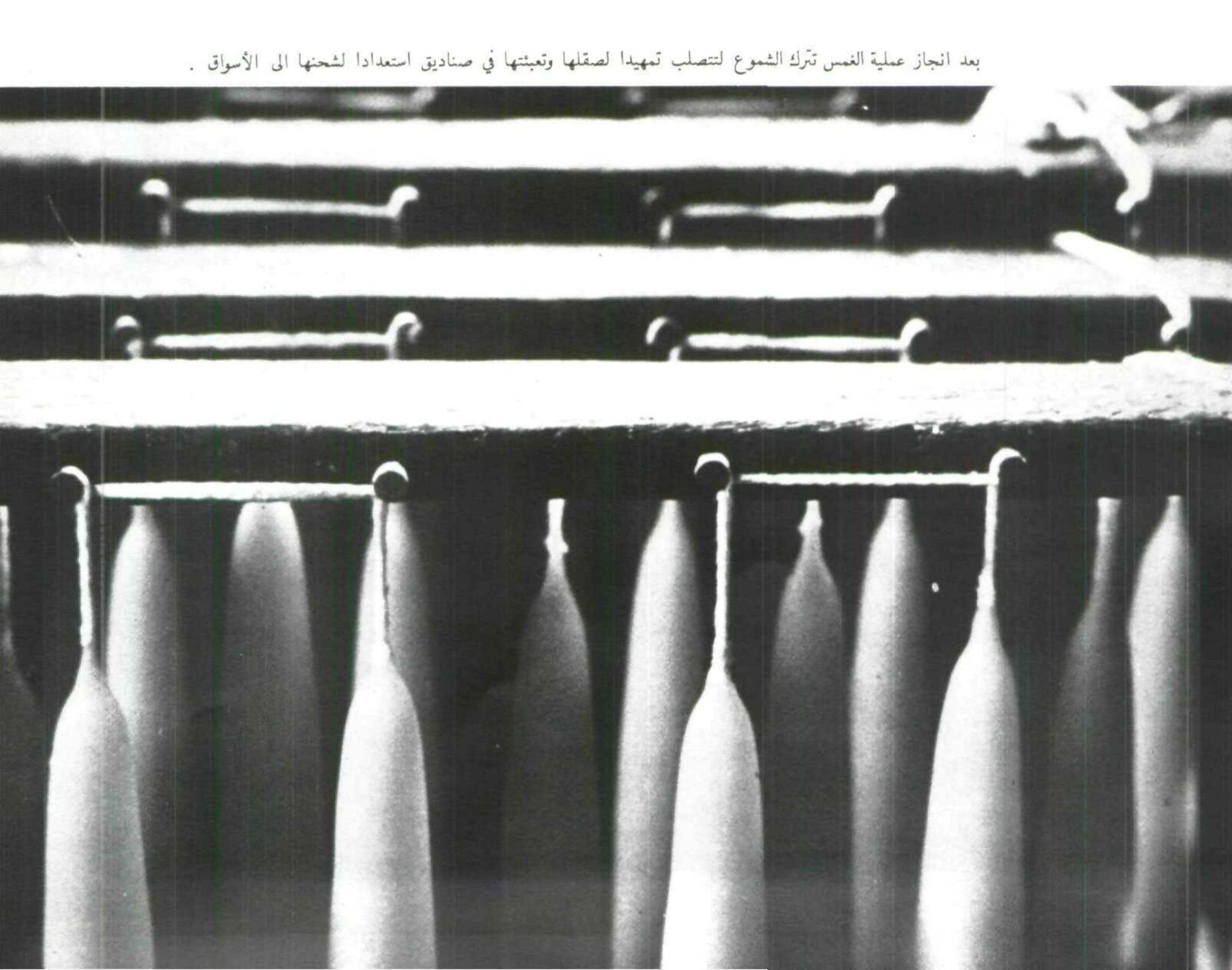
عرف الانسان المادة الشمعية منذ آلاف السنين . بيد أن تاريخ صناعة شموع الانارة يكتنفه بعض الغموض الذي لم يكشف النقاب عنه بعد . غير أن عددا من الباحثين الاجتماعيين استطاعوا بدراساتهم المتواصلة أن يتتبعوا تاريخ صنع شموع الانارة حتى خلال عصر ما قبل الميلاد . ويحدثنا هؤلاء الباحثون أن صناعة الشموع كانت احدى المهارات المنزلية المألوفة التي كانت تمارسها ربات البيوت ، كصناعة الصابون ، وعمل الخبز ، وغير ذلك من الأعمال التي كانت المرأة في الأزمان الغابرة تحرص على القيام بها ، وتوفيرها لأسرتها على ما فيها من مشقة وعناء . ويقص علينا المعنيون بتاريخ صناعة شموع الانارة نتفا عن الطريقة البدائية التي كانت تستخدمها المرأة ، وهي ان دلت على شيء فانما تدل على ما كانت تتحلى به من الاناة والصبر وقوة الاحتمال .

في مطلع القرن السابع عشر الميلادي وطئت أقدام المهاجرين الأول من الانجليز ما يعرف اليوم بولاية « نيوانجلاند » في الولايات المتحدة الأمريكية . فكانت المرأة في هذه البلاد الجديدة البكر تصنع شموعها بطريقة الغمس «Dipping» . فحينما كان زوجها يعود من رحلات الصيد بغزال أو دب أو موظ (١) « Moose » ربل مكتنز الشحم ، تعمد هي الى الدهن الحيواني فتغليه بالماء ، ثم تأتي بذبالة من خيوط القطن المفتولة ، وتغمسها بالدهن الطافي على وجه الماء ، ثم لا تلبث أن تنزعها منه حتى تتصلب طبقة الدهن التي علقت بالذبالة . وتعيد الكرة مرة أخرى بل مرارا ، فتغمسها لتعلق بها طبقة فوق طبقة ، وترفعها في كل مرة لتقسو وتتصلب ، وهكذا حتى يصبح لديها شمعة جميلة مستدقة الطرف .

أما بعض ربات البيوت فكن ، في حال عدم توفر الدهون الحيوانية ، يعمدن الى الثمار الشمعية لبعض الشجيرات البرية التي تنمو بنوع خاص على سواحل ولاية نيوانجلاند ، كالشجيرة الشمعية العطرية الأمريكية — Wax Myrtle ، والنخل الشمعي — Wax Palm ، والتوت الشمعي — Wax Berry ، وله ثمار مكسوة بطبقة شمعية ذات لون رمادي أخضر تفوح منها رائحة زكية نفاذة . فتجمع هذه الثمار وتوضع في ماء يغلي ، وسرعان ما تذوب المادة الشمعية وتطفو على سطح الماء . عندها تبادر المرأة الى كشط الشمع وتدعه يبرد . وبعد ذلك تذيبه مرة ثانية لتنقيته من الشوائب ، استعداداً لصنع شموعها المعطرة منه . وهذه الطريقة البطيئة هي من الصعوبة بمكان ، ففضلا عما تلاقيه المرأة من مشقة في جمع الثمار واذابة شمعها ، نجدها تحتاج الى ما لا يقل عن نصف غالون من الثمار الشمعية لصنع شمعة نحيلة لا يتجاوز طولها عشر بوصات . وبالرغم من استعمال

(١) حيوان يعيش في أمريكا الشمالية

بعد انجاز عملية الغمس تترك الشموع لتتصلب تمهيدا لصقلها وتعبئتها في صناديق استعدادا لشحنها الى الأسواق .

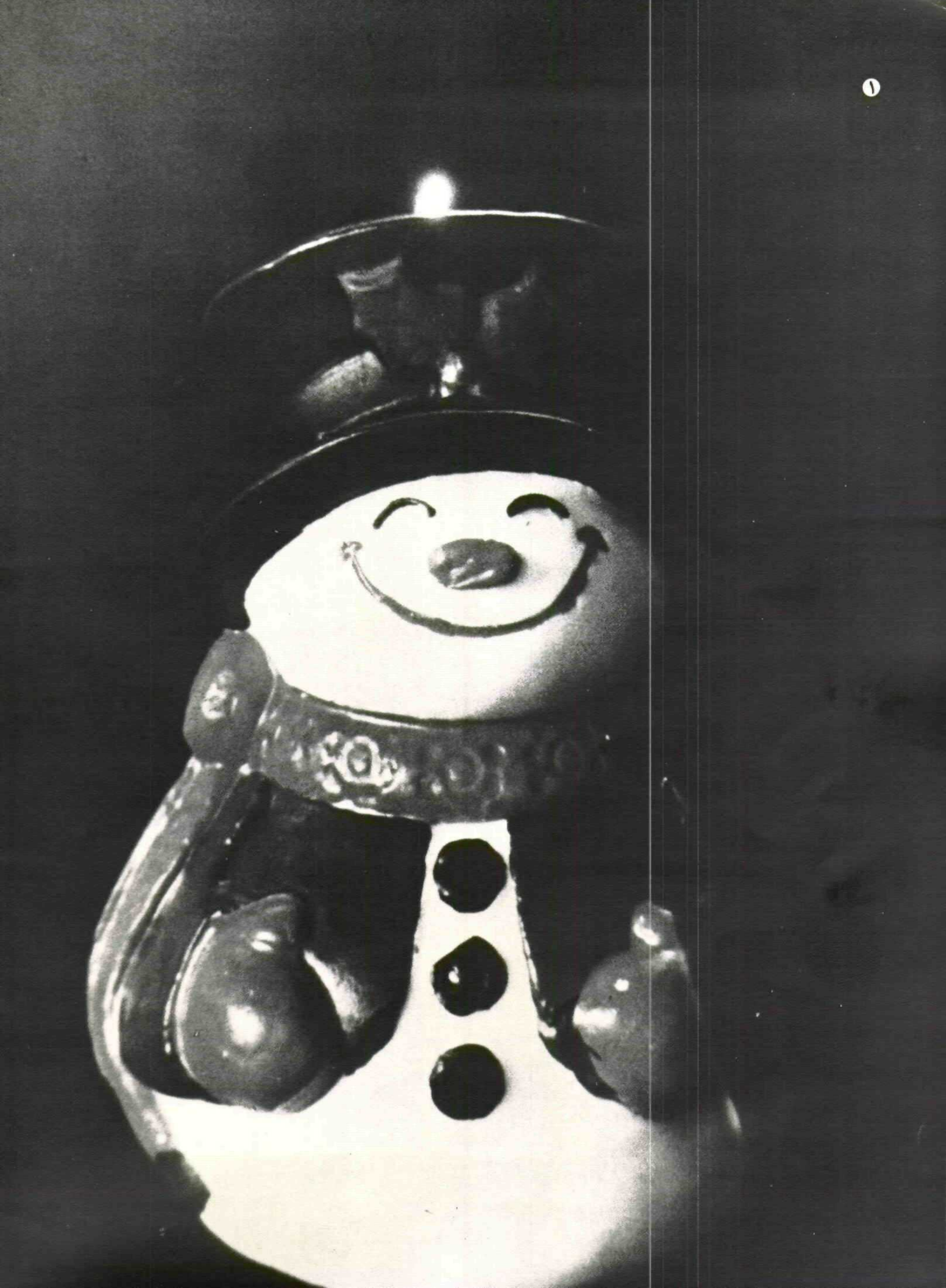


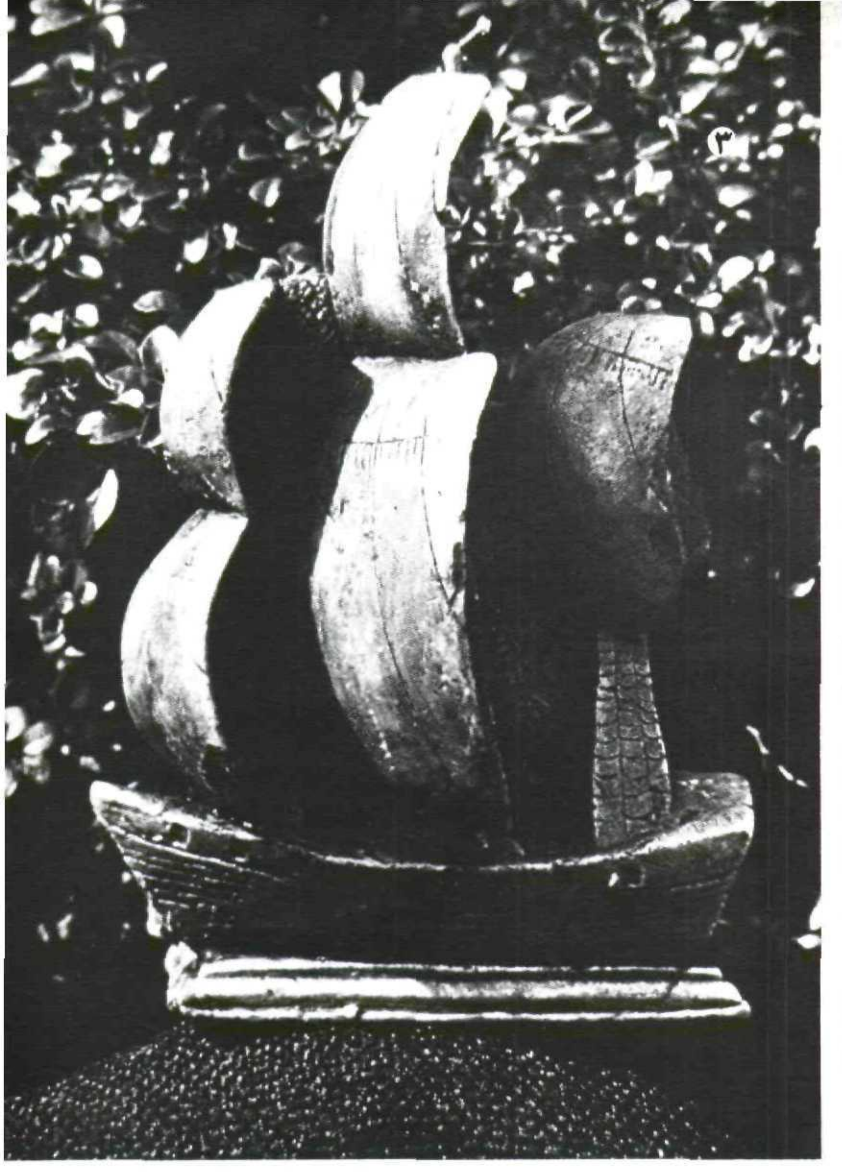
الدهون الحيوانية والثمار الشمعية في صناعة شموع الانارة . فان الشموع المصنوعة من شمع النحل كانت ولا تزال أكثر أنواع الشمع شيوعا وذلك لجودتها وندرتها ، كما كانت أغلى ثمنا من غيرها باعتبارها جوهرة الشموع .

ولما أصبحت المادة الشمعية المستخلصة من النحل والحيوانات والنباتات لا تسد الحاجة المتزايدة اليها ، وجه الانسان أنظاره الى البترول الذي اكتشف في أواسط القرن التاسع عشر كمصدر جديد لصناعة شموع الانارة ، وللعديد من الصناعات الأخرى . فالمعروف أن الزيت الخام يتكون من مركبات هيدروكربونية من بينها المجموعة البرافينية (الشمعية) . وهي تتميز بتركيب بلوري غليظ ، وتتكون بصورة رئيسية من برافينات نظامية ، بالاضافة الى بعض البرافينات المتماكبة والبرافينات الحلقية . وقد كان لوسائل التقطير ، وما طرأ عليها من تحسينات عبر السنين ، دور فعال في الحصول على كميات هائلة من الشمع ، علاوة على المنتجات الأخرى ذات الأساس الزيتي . والتقطير في أبسط مظاهره يتم في برج التقطير حيث يجري فصل مركبات الزيت الخام بعضها عن بعض عن طريق التسخين ، ثم التبخر ، ثم التكثيف لاعادة المركبات المختلفة الى حالة السيولة . ولما كانت درجة غليان الشموع البرافينية ومقطرات زيوت التشحيم الخفيفة واحدة تقريبا ، لذا يتعذر فصلها بالتقطير . بيد أن كيميائيي البترول لم يعدموا وسيلة لفصل هاتين المادتين ، الشموع البرافينية وزيوت التشحيم الخفيفة ، فعمدوا الى تبريدهما على درجة حرارة معينة يتم فيها تصلب الشموع البرافينية ، وبقاء مواد التزييت الخفيفة في حالة السيولة ، وعندها يصبح في الامكان فصلهما عن بعضهما البعض . وعلى مقدار اتقان عملية تكرير المنتجات البرافينية يصبح في الامكان استخلاص صنفين منها ، أحدهما الشموع البرافينيـة المكررة تكريرا كاملا — Fully Refined Wax وتكون في العادة بيضاء صلبة ، خالصة في جوهرها لا رائحة لها ولا طعم ، وتحتوي على نسبة من الزيت لا تزيد على ٠,٥ في المائة بالوزن ، والآخر «الشمع الحرشفي (القشري) — Scale Wax » وهو أكثر لدانة من سابقه ، ويحوي نسبة من الزيت تصل أحيانا الى ٣ في المائة بالوزن . أما تفضيل صنف على آخر فيتوقف بالدرجة الأولى على كيفية استخدام الشمع ، والمنتجات التي يتوخاها العاملون في صناعة الشموع . فعلى سبيل المثال ، تستخدم الشموع البرافينية المكررة تكريرا كاملا في صنع الطبقة الخارجية لشموع الانارة العديمة التقطر « Dripless » لأن درجة انصهارها عالية . ولذا تقوم هذه الطبقة الشمعية الصلبة كحاجز

تتفحص هذه العاملة الشموع المقولبة بعناية فائقة قبل غمسها في أصباغ التجميل .









١ – في المناسبات الخاصة تصنع من الشمع حاجات كثيرة من بينها « رجل الثلج » المصنوع من الشمع المخفوق والمزخرف باليد بدهان زيتي الأساس .

٢ – لمسات فنية بارعة تتعرض لها الشموع الخاصة قبل مغادرتها المصنع .

٣ – سمات الفن القديم يبرزها الفنان على بعض الشموع التي تستعمل في مناسبات خاصة .

تصوير : « أور صن »

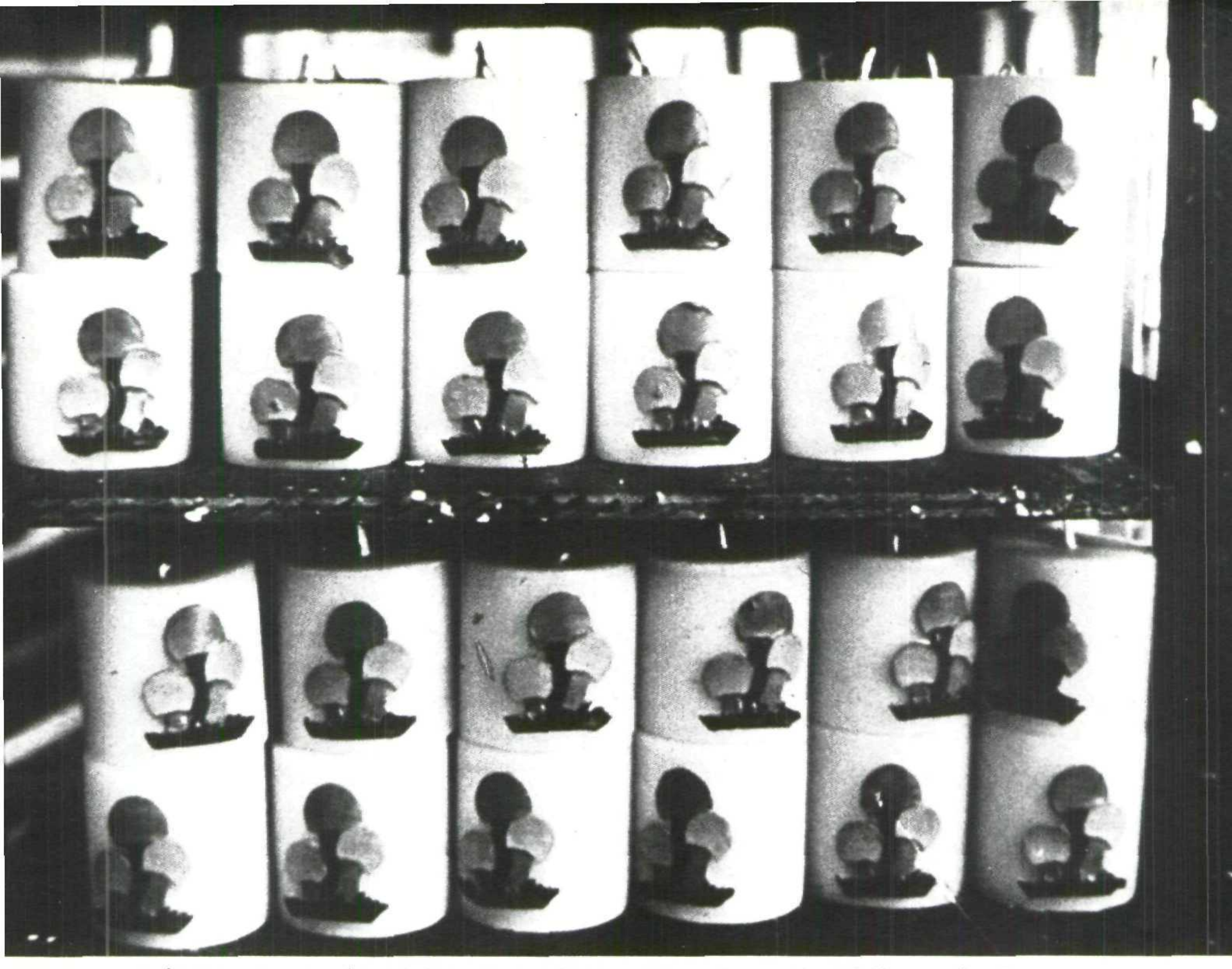
حول لب الشمعة المصنوع من الشمع اللين السريع الاحتراق ، فيمنع تقطره خارج الشمعة .

ويمكن القول بصورة عامة ان الشموع البترولية الخالصة المستخدمة في صنع شموع الانارة لدنة ومرنة وقابلة للتكييف . وقد اكتشف صانعو الشموع طريقة لعلاج هذه اللدانة ، وذلك باضافة « الحامض الاستياري – Stearic Acid » الى عجينة الشمع بغية تقسيته « Hardening » . وهذا الحامض عبارة عن مادة صلبة عديمة اللون والرائحة تستخلص من بعض الدهون الحيوانية والنباتية ، وهي المادة ذاتها التي كانت ربات البيوت تستعملها قديما في صنع الشموع . وللحصول على أصناف عديدة من الشموع ذات أغراض واستعمالات متعددة ، وتمزج هذه المادة بالشمع بنسب معينة .

اما شحن المادة الشمعية من معامل التكرير الى مصانع شموع الانارة فيتم اما مذابا في سيارات صهريج خاصة مزودة كل منها بسخانة تحت الصهريج ، أو صلبا على شكل ألواح زنة الواحد منها نحو خمسة كيلوغرامات . ويفضل الكثير من أصحاب مصانع شموع الانارة استقبال الشمع مذابا لأنه يوفر عليهم مرحلة مهمة باهظة التكاليف ضمن مراحل عملية صنع الشموع ، لذلك تتم اسالة الشمع المذاب من سيارات الصهريج بأنابيب خاصة ثم تضاف الى السائل الشمعي مواد كيميائية تتطلبها عملية صنع الشموع المتنوعة ، ثم يضخ المزيج مباشرة في القوالب أو الأوعية الضخمة التي تستخدم لصنع الشموع باليد عن طريق الغمس .

ولئن اختلفت مصانع شموع الانارة في انتاج أصناف متنوعة متفاوتة في الجودة والرائحة واللون الا أنها تستخدم طريقة واحدة في صنع الشموع . فهناك بعض المصانع التي تنتج نحوا من ٢٦ صنفا من شموع الانارة ، ينبعث من كل صنف منها لدى الاحتراق شذى معين يختلف باختلاف المواد المضافة الى الشمع المكونة في الغالب من خلاصات الأزهار والفواكه . فهذه شمعة تعبق المكان برائحة الليمون ، وتلك تفوح برائحة الورد ، وأخرى برائحة الكرز أو جوز الهند ، وهلم جرا .

وعملية تصنيع شموع الانارة تتم الآن بطريقة تلقائية جزئيا ، اذ تدخل اليد العاملة الماهرة في بعض مراحلها . ففي المصنع يشاهد المرء عددا من الدواليب الضخمة يبلغ قطر الواحد



مجموعة من الشموع، المزدانة بزخارف ورسومات بديعة قام بعملها فنانون بارعون، تنتظر تعبئتها في صناديق لشحنها الى الأسواق.

منها ١٦ قدما، تدور بحركة أفقية، ومثبت على كل دولاب ١٦ اطارا، يتدلى من كل واحد منها خيوط من الفتيل تكفي لصنع ٧٢ شمعة. وتدور الدواليب بسرعة محدودة يستطيع الشماع «Dipper» عندها نزع كل مجموعة من الاطارات التي تمر بمحطته أثناء دوران الدولاب، ثم غمرها بالشمع الذائب في وعاء مسطح كبير «Vat» لتكتسي الفتائل بطبقة من الشمع ثم اعادتها الى الدولاب ليستقبل المجموعة الثانية من الأطر عندما تصبح في متناول يده. وتتطلب الشمعة الواحدة ٤٠ غمسة في الشمع الذائب لتغدو في الحجم المطلوب. ولتقسية كل طبقة جديدة من الشمع تستخدم مراوح كهربائية مثبتة فوق الدواليب. ويبلغ مقدار ما ينتجه الشماع من الدولاب الواحد في ساعتين ٩٦ دستة يجري فحصها بعناية ثم تصقل وتلمع باليد، وتلف بورق «السيلوفان» وتوضع في صناديق أنيقة، استعدادا لشحنها الى الأسواق.

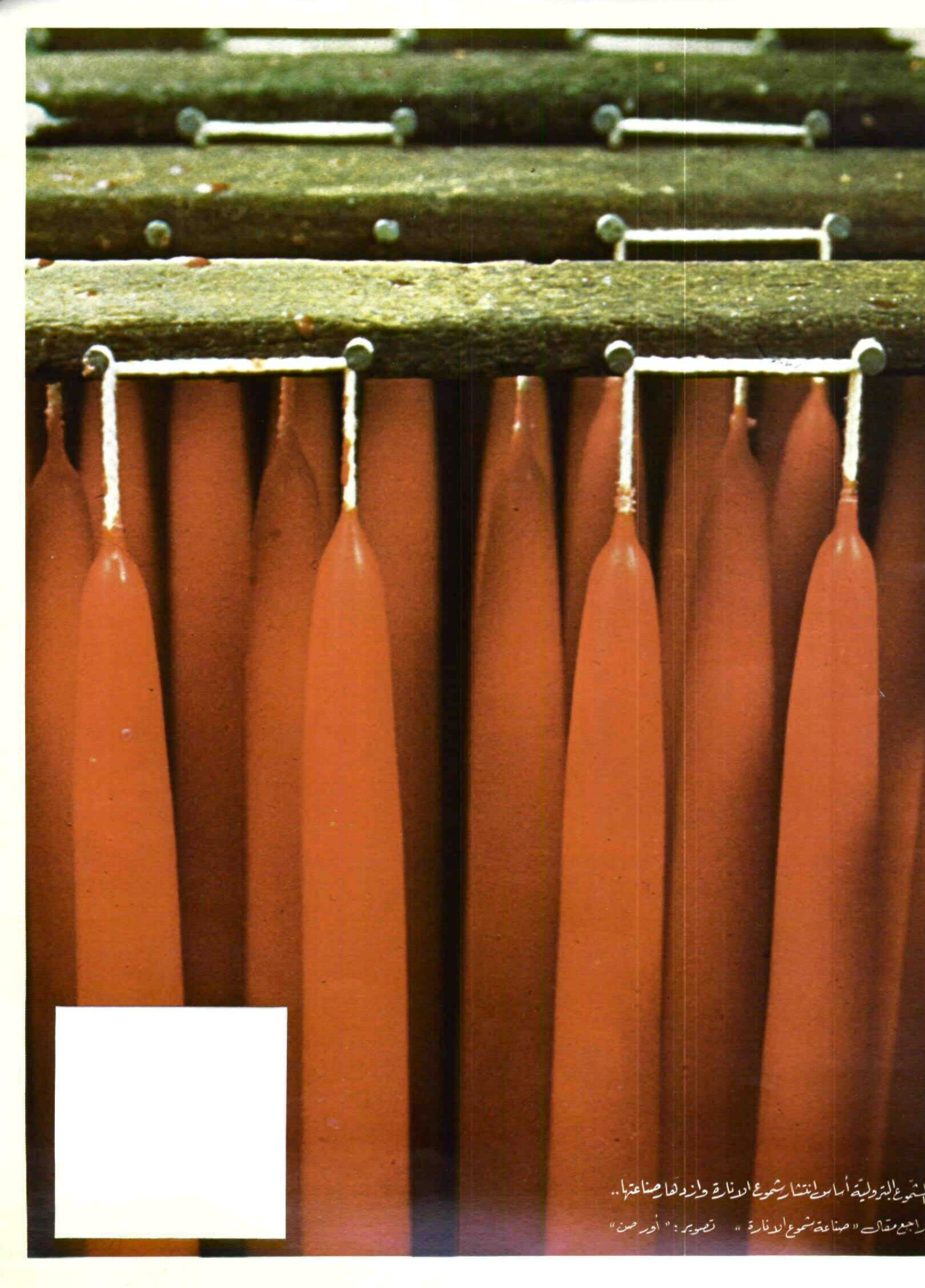
كما تصنع بعض الشموع بطريقة القولبة، وخاصة الكبيرة منها التي تستعمل في مناسبات خاصة. ففي الماضي، عندما كان استعمال الآلة محدودا وعلى نطاق ضيق، كان صانعو الشموع يصبون الشمع الذائب في قوالب خشبية ثم يتركونها لتتصلب تدريجيا. غير أن الانسان فيما بعد لم يلبث أن استعمل قوالب مصنوعة من القصدير الخالص لسرعة برودتها ومقاومتها للتآكل، وقدرتها العالية على التلميع، وسهولة اعادة سبكها. كما ومن ميزات هذه القوالب القصديرية أنها توضع في صوان مملوءة بالماء البارد، الأمر الذي يساعد على تصلب الشمع وتقسيته بسرعة وفي مدة أقصر من ذي قبل.

هذا ولا يقتصر صنع الشموع على مجرد قولبتها وسبكها لانتاج كميات هائلة منها بل يدخل الفن التشكيلي بأبعاده في صلب هذه الصناعة. فالأصباغ بما تضفيه على الشمعة من ظلال محببه وقيم جمالية رفيعة يعالجها فنانون مختصون لتخرج الشمعة في شكل بهي جذاب. كما يقوم هؤلاء الفنانون بتزيين الشموع برسومات وزخارف بديعة تعكس عراقة القديم وأصالة الحديث، مما يجعل الاقبال على شرائها شديدا.

ومع أن كثيرا من الصناعات تتم الآن بطريقة تلقائية متكاملة، الا أن القائمين على صناعة شموع الانارة ينزعون الى المحافظة على التقاليد القديمة عن طريق ابقاء اليد البشرية في هذه الصناعة عاملا بارزا، سيما وأن الشموع لا تستعمل في انارة المنازل كما كانت عليه الحال في الماضي، وانما غدت تستعمل على نطاق واسع في أعمال الاضاءة الخفيفة، خاصة في صالات الطعام، وفي أغراض الزينة المختلفة ■

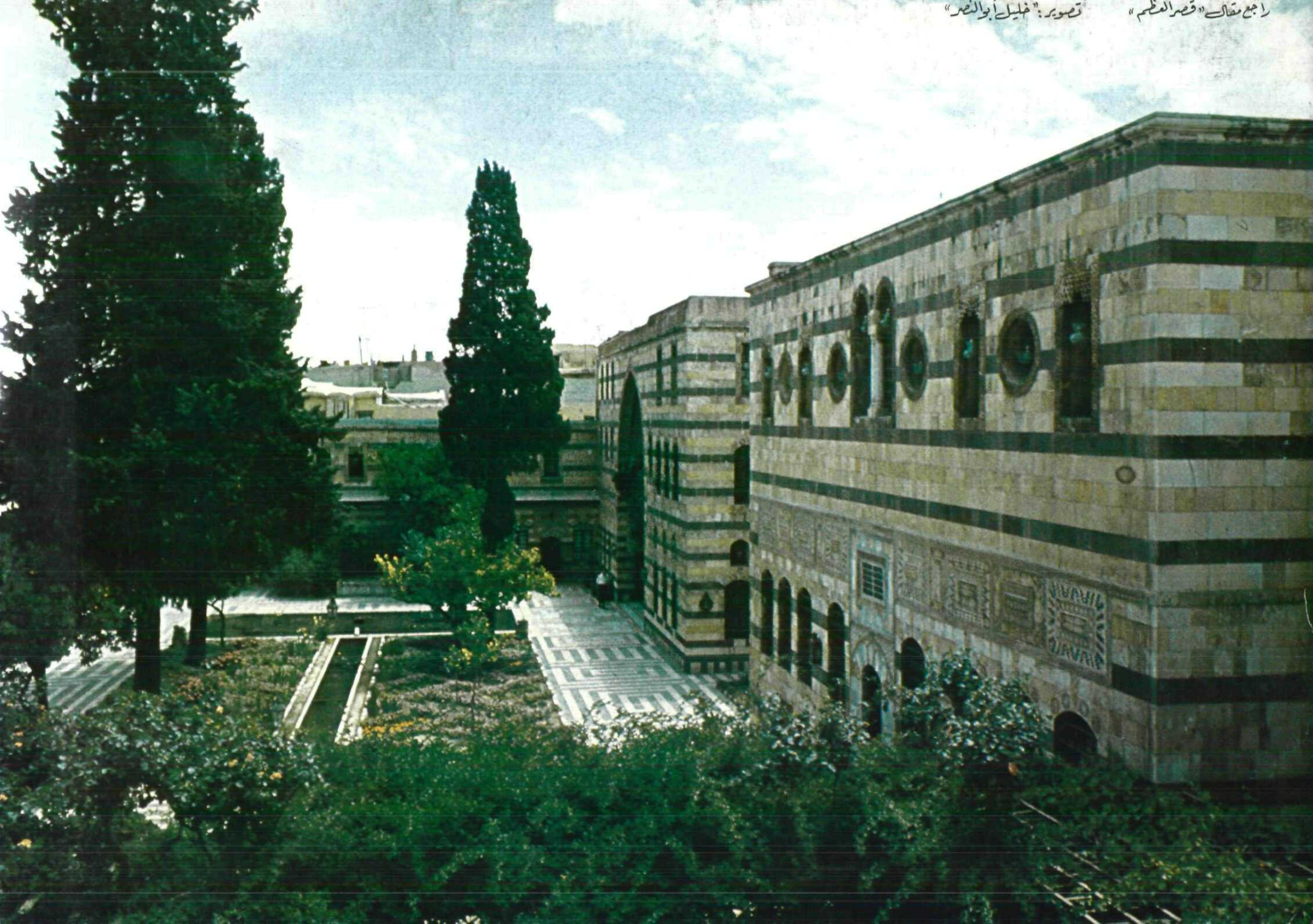
سليمان نصر الله

عن مجلة «أور صن»



لشموع البترولية أساس انتشار شموع الانارة وازدهار صناعتها..

راجع مقال « صناعة شموع الانارة » تصوير: « أورصن »



راجع مقال «قصر العظم»   تصوير: «خليل أبو النصر»